قصيدة الرثاء في المفضليات

قراءة في نماذج مختارة

دكتورة/ غادة جميل قرني محمد يوسف
مدرس الأدب القديم
كلية دار العلوم – جامعة المنيا

(١)

يعد الرثاء أحد فنون الشعر العربي بصفة عامة والشعر القديم بصفة خاصة، بل إنه ليتصدرها من حيث صدق التجربة وقوة التعبير عما يعانيه الشاعر من الحزن والألم. ولقد اشترك الرجال والنساء في إقامة فعل البكاء والندب بصفة عامة، وإقامة فعل الثناء والتصبر علي فراق موتاهم بصفة خاصة.

ولقد أشار "شوقي ضيف" في مقدمة كتابه "الرثاء" إلى أن: "النساء والرجال جميعًا يندبون الموتى، كما كانوا يقفون علي قبورهم مؤبنين لهم ومُثْنين علي خصالهم، وقد يخلطون ذلك بالتفكير في مأساة الحياة وبيان عجز الإنسان وضعفه أمام الموت، وأن ذلك مصير محتوم"[١]. ويعد الرثاء غرض شعري إنساني ذو طرفين، يمثل أولهما: طرف محزن يسخط فيه الإنسان علي الحياة الآثمة التي ارتكبت فعل الجرم والإثم في فقدان عزيز وغالي لديه، وثانيهما: يمثل طرف المواساة الحقيقة التي تُدخله إلى عالم الثناء علي هذا الفقيد والصبر والتصبر على فقدانه ورحيله.

يشير ابن منظور إلى أن الرثاء لغة يعني البكاء علي الميت ومدحه، يقال: رثى فلانُ فلانًا يرثيه رثيًا ومرثيةً، إذا بكاه بعد موته. فإن مدحهُ بعد موته قيل: رثاهُ

حرصًا على الاختصار، لم أذكر في الهامش إلا اسم المؤلف متبوعًا بتاريخ صدور الكتاب، ورقم الصفحة، وإذا كان لمؤلف واحد كتابان صدرا فى تاريخ نشر مشترك، فإننا نعطى الأول منهما رقم (١) والثانى رقم (٢) تأتى بعد تاريخ النشر؛ أما عنوان الكتاب ومكان صدوره سيجده القارئ مفصلًا في البيليوجرافيا الخاصة بالمصادر والمراجع المثبتة في نهاية الدراسة.

١ ضيف، شوقي (١٩٨٧)، ص ٧.

يُرثيه ترثيةً. ورثيتُ الميت رثيًا ورثاءً ومرثاةً ومرثيةً. ورثيته: مدحته بعد الموت وبكيته. ورثوتُ الميتَ، أيضًا، إذا بكيته وعددت محاسنه، وكذلك إذا نظمت فيه شعرًا[1]. والفعل "رَثَى": "الرَّاءُ وَالثَّاءُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ أُصَيْلٌ عَلَى رِقَّةٍ وَإِشْفَاقٍ. يُقَالُ رَثَيْتُ لِفُلَانٍ: رَقَقْتُ. وَمِنَ الْبَابِ قَوْلُهُمْ رَثَى الْمَيِّتَ بِشِعْرٍ. وَمِنَ الْعَرَبِ مَنْ يَقُولُ: رَثَأْتُ. وَلَيْسَ بِالْأَصْلِ، وَمِنَ الْبَابِ الرَّثِيَّةُ: وَجَعٌ فِي الْمَفَاصِلِ. فَأَمَّا الْمَهْمُوزُ فَهُوَ أَيْضًا أُصَيْلٌ يَدُلُّ عَلَى اخْتِلَاطٍ. يُقَالُ أَرْثَأَ اللَّبَنُ: خَثُرَ. وَالِاسْمُ الرَّثِيئَةُ. قَالُوا فِي أَمْثَالِهِمْ: "إِنَّ الرَّثِيئَةَ مِمَّا يُطْفِئُ الْغَضَبَ". قَالَ أَبُو زَيْدٍ: يُقَالُ ارْتَثَأَ عَلَيْهِمْ أَمْرُهُمْ: اخْتَلَطَ. وَمِنْهُ الرَّثِيئَةُ. وَيُقَالُ: ارْتَثَأَ فِي رَأْيِهِ، أَيْ خَلَطَ. وَهُمْ يَرْتَثُونَ رَثْئًا. وَيُقَالُ الرَّثِيئَةُ أَنْ يَخْلِطَ اللَّبَنَ الْحَامِضَ بِالْحُلْوِ"[2].

من المعنى اللغوي للفعل "رَثَى"، مع تغيير صورة الحرف الثالث لهذا الفعل، تتبدى العلاقة الأساسية أو العلاقة الوطيدة القائمة بين المعني اللغوي لكلمة "رثاء" وبين ما وضع له اصطلاحًا. فموقف الراثي من فقد إنسان عزيز لديهِ ما هو إلا موقف الضعف، ومن ثم هو موقف الضعف العام المسيطر علي عقول الناس جميعًا، لأنهم لا يستطيعون فعل شيء يجابهون به هذا الفقد الذي سلب منهم عزيز لديهم؛ فالمعنى الاصطلاحي للرثاء، كما يشير "قدامة بن جعفر"، لا يختلف عن المدح: "ليس بين المرثية والمدحة فرقُ إلا أن يُذكر في اللفظ ما يدل على أنه لهالكِ مثل: كانَ، وتولى، وقضى، وما أشبه ذلك. وهذا ليس يزيدُ في المعنى ولا ينقص منه؛ لأن تأبين الميت إنما هو بمثل ما كان يمدح في حياته، وقد يفعل في التأبين شيء ينفصل به لفظه عن لفظ المدح بغير كان وما جرى مجراها، وهو أن يكون الحي وصف مثلًا بالجود، فلا يقال: كان جوادًا ولكن بأن يقال: ذهب الجود أو فمن للجود بعده أو ليس الجود مستعملًا مذ تولى، وما أشبه هذه الأشياء"[3]. وإذا كان الرّثاء في الأصل ناشئًا من الحزن والأسف والفجيعة، فإن "ابن رشيق"، على الرغم من اتفاقه مع "قدامـــــــة بن جعفر"، أضاف

١ راجع: ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (١٩٥٥) المجلد الرابع عشر، ص ٣٠٩.

٢ ابن زكريا، أبو الحسين أحمد بن فارس (١٩٧٩)، الجزء الثاني، ص ٤٨٨.

٣ ابن جعفر، أبو الفرج قدامة (بدون تاريخ)، ص ١١٨.

خصوصية معنوية للرثاء تجعله يختلف عن المدح: "وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجّعِ بَينَ الحسرةِ، مخلوطًا بالتلهف والأسف والاستعظامِ"[١].

وللرّثاء أشكال وأنماط متعددة، ومن تلك الأشكال "النَّدْبُ"، وهو بكاء الميت، وتعداد محاسنه. والنَّدْبُ: أَن تَدْعُوَ النادبةُ الميتَ بحُسْنِ الثناءِ في قولها: وافُلاناهْ واهَناه، وأَن تَذْكُرَ النائحةُ الميتَ بأَحسن أَوصافه وأَفعاله[٢]. وقد أفرد "شوقي ضيف" فصلًا برمته عن الندب وعرفه بأنه "النواح والبكاء على الميت بالعبارات المشجية والألفاظ المحزنة التي تصدع القلوب القاسية وتذيب العيون الجامدة، إذ يولول النائحون والباكون ويصيحون ويعولون مسرفين في النحيب والنشيج وسكب الدموع"[٣]. والشاعر لا يندب نفسه وأهله فحسب، بل يندب أيضًا من ينزلون منه منزلة النفس والأهل ممن يحبهم ويؤثرهم. ولقد ساهم النساءُ والرجال في إقامة فعل الندب، بل ربما كان للنساء الجزء الأكبر في القيام بهذا الفعل، "إذ كنَّ هن اللائي يَقُمنَ على ندب الميت أيامًا، بل ربما امتد قيامهن عليه سنوات، وكنَّ يحلقن شعورهن ويلطمن خدودهن بأيدهن وبالنعال والجلود أحيانًا. وقد يقمن بذلك في مجالس القبيلة وعلى القبور وفي المواسم العظام كموسم عُكاظ"[٤]. وندب الموتى والنواح عليهم يعد الصورة الأولى للرثاء الجاهلي، ولقد تفوقن النساء علي الرجال في إقامة فعل الندب، والبكاء على الموتي والنواح عليهم، ويعود السبب في ذلك، كما يرى "شوقي ضيف"، إلي أن: "المرأة أدق حسًا وأرق شعورًا، وأيضًا فإن حياة الرجال في العصر الجاهلي كانت تقوم على القتل وسفك الدماء والتفاخر بالشجاعة والبطولة، فكانوا يأنفون أن يقعدوا للبكاء وذَرْف الدموع كالنساء، بل لقد ذهبوا يظهرون التجلد والصبر على من يموت منهم"[٥].

ومن ألوان الرثاء أو أشكاله "النَّعي"، وورد في لسان العرب: "النَّعْيُ: خَبَر الْمَوْتِ، وكَذَلِكَ النَّعِيُّ. قَالَ ابْنُ سِيدَهْ: والنَّعْيُ والنَّعِيُّ، بِوَزْنِ فَعيل، نِداء الدَّاعِي، وَقِيلَ:

١ ابن رشيق، أبو علي الحسن القيرواني الأزدي (١٩٨١)، الجزء الثاني، ص ١٤٧.

٢ راجع: ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (١٩٥٥)، المجلد الأول، ص ٧٥٤.

٣ ضيف، شوقي (١٩٨٧)، ص ١٢.

٤ السابق، ص ٨.

٥ السابق، ص ٨.

هُوَ الدُّعاء بِمَوْتِ الْمَيِّتِ والإِشْعارُ بِه، نَعَاه يَنْعَاه نَعْيًا ونُعْيَانًا، بِالضَّمِّ. وَجَاءَ نَعِيُّ فلانٍ: وَهُوَ خَبَرُ مَوْتِه. وَفِي الصِّحَاحِ: والنَّعْيُ والنَّعِيُّ، وَقَالَ أَبو زَيْدٍ: النَّعِيُّ الرَّجل الميِّت، والنَّعْيُ الفِعْل"[1]. وقد وردت لفظة نعى والنعاة في الشعر بمعنى الإعلان عن خبر الوفاة، يقول المهلهل بن ربيعة التغلبي:

نعى النعــاةُ كليبًــا لــي فقلــتُ لهــمْ مادَت بنا الأرضُ أمْ زالــت رواســيها[2]

ويقول المتنخل الهذلي :

أقُــولُ لَمَّــا أَتَــانِي النَّاعِيَــانِ بِــهِ لا يَبْعَدِ الرُّمْحُ ذُو النَّصْلَيْنِ وَالرَّجُلُ[3]

وقد أشار" التِّرْمِذِيّ" إلى أن "النعي عندهم (أي عند العرب) أن ينادي في الناس أن فلانًا مات، ليشهدوا جنازته"[4]. ومن ثم، أصبح النعي هو الإخبار عن موت الميت إما أن يكون إعلامًا مجردًا، وإما أن يكون إعلامًا بنداء ورفع صوت وذكر محاسن الميت ومآثره وما شابه ذلك.

ومن صور الرثاء وأشكاله "التأبين"؛ والتأبين هو الثناء على الميت ومدحه بعد موته. وورد في لسان العرب": أَبَّنَ الرجلَ تأْبِينًا: مَدَحه بَعْدَ مَوْتِه وبَكَاهُ؛ وَقَالَ ثَعْلَبٌ: هُوَ إِذَا ذكَرْتَه بَعْدَ مَوْتِه بِخَيْرٍ؛ وَقَالَ مَرَّةً: هُوَ إِذَا ذَكَرْتَهُ بَعْدَ الْمَوْتِ. وَقَالَ شَمِرٌ: التَّأْبِينُ الثَّناءُ عَلَى الرَّجُلِ فِي الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ[5]. وعلى الرغم من أن التأبين يعدُ نمطًا أو شكلًا من أشكال الرثاء وأنماطه، فإنه "ليس نواحًا ولا نشيجًا على هذا النحو، بل هو أدنى إلى الثناء منه إلى الحزن الخالص، إذ يخرّ نجم لامع من سماء المجتمع، فيُشيد به الشعراء منوهين بمنزلته السياسية أو العلمية أو الأدبية، وكأنهم يريدون أن يصوروا خسارة الناس فيه. ومن هنا كان التأبين ضربًا من التعاطف والتعاون الاجتماعي، فالشاعر فيه لا يعبر عن حزنه هو وإنما يعبر عن حزن الجماعة وما فقدته في هذا الفرد المُهمّ من

١ ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (١٩٥٥)، المجلد الخامس عشر، ص ٣٣٤.

٢ شيخو، الأب لويس (١٩٩١)، ص ١٦٦.

٣ السكري، أبو سعيد الحسن بن الحسين (١٩٦٥)، الجزء الثالث، ص ١٢٨٤.

٤ التِّرْمِذِيّ، الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى (١٩٩٦)، المجلد السادس، ص ٢٣٩.

٥ ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (١٩٥٥)، المجلد الأول، ص ٤.

أفرادها، ولذلك يسجل فضائله ويلّحُ في هذا التسجيل وكأنه يريد أن يحفرها في ذاكرة التاريخ حفرًا حتى لا تُنْسى على مر الزمن"[١]. وإذا عدنا للموروث الحضاري التاريخي والشعري، فإننا نرى أن الوقوف على القبور وذكر المتوفى عندها هي صورة التأبين القديمة والتي ماتزال حتي اليوم. وفيها يذكر القوم مناقب الميت وفضائله بشكل رثائي مدحي، "وقد يكون من أقدم صور الرثاء عندهم ما نقش على قبور الأقيال والأذواء في اليمن والأُمراء في الحيرة، وعند الغساسنة في الشام، فعلى قبورهم كانوا يكتبون أسماءهم وألقابهم تخليدًا لذكراهم وتمجيدًا لأعمالهم، وكأن هذه هي الصورة الأولى للتأبين، والإشادة بفضائل الميت"[٢].

ومن صور الرثاء وأشكاله: "العزاء"، ويعد العزاء لونًا مغايرًا، فهو ذو طابع فكري فلسفي خاص، حيث يصطحب الشاعر إلى التفكير في معنى الموت وحقيقته. والعزاء "مرتبة عقلية فوق مرتبة التأبين، إذ نرى الشاعر ينفذ من حادثة الموت الفردية التي هو بصددها إلى التفكير في حقيقة الموت والحياة. وقد ينتهي به هذا التفكير إلى معان فلسفية عميقة، فإذا بنا نجوب معه في فلسفة الوجود والعدم والخلود. ومردّ هذا كله أن الحياة ظل لا يدوم. عبارة يرددها الشاعر الجاهلي ويحللها الشاعر العباسي، وما يزال الشعراء يحللون فيها متحدثين عن الخلود أو الفناء"[٣].

تلك هى أشكال الرثاء وأنماطه وصوره في الشعر القديم، ولم نتناول هذه الأشكال والصور بالعرض المسهب الطويل، واكتفينا بالإشارة المختصرة نظرًا لتناول "شوقي ضيف" وغيره من الباحثين هذا الموضوع.

(٢)

الرثاء من الأغراض الشعرية الرئيسة التي تناولها الشاعر العربي القديم، فقد يقع غرض الرثاء من بين أغراض القصيدة المتعددة، فيبدأ الشاعر القصيدة بالتقاليد الجاهلية المتبعة للقصيدة، من الوقوف على الأطلال، وبكاء بقايا الديار ومنزل الحبيب،

---

١ ضيف، شوقي (١٩٨٧)، ص ٦.

٢ السابق، ص ٧.

٣ السابق، ص ٦.

فيبكي ويسأل الأماكن عن محبوبته وعن رحيلها في دهشة وحيرة، ثم يحاول أن يتناسى الألم والحزن باللجوء إلى الصحراء مصطحبًا ناقته العنتريس القوية، ويشبه ناقته بالحمار الوحشي القوي السريع الذي يتحمل اندفاعه في هذه الفلاة، ثم يتطرق إلى الغرض الرئيس الذي يقصده وهو الرثاء. ومن تلك القصائد التي تتبع المنهج الجاهلي المتعارف عليه لتحقيق الوصول للغرض الرئيس للقصيدة، كانت لامية "النابغة الذبياني" في رثائه للنعمان الغساني، والتي مطلعها:

دعاكَ الهوى واستْجهلتكَ المنازلُ وكيفَ تَصابِي المرءِ وَ الشيبُ شاملُ

وقفتُ بِرَبعِ الدارِ قد غَيّرَ البلى معارفها والساريات الهواطلُ[1]

ومنهم من يبدأ قصيدته باللوم والعتاب على من يعذله، فهو لا يستطيع الصبر على اللائم فيعظم من شأن المرثي. ومن ذلك قصيدة "دُرَيْد بن الصِّمَّة" في رثاء أخيه التي مطلعها:

أَرَثَّ جَديدُ الحَبلِ مِن أُمِّ مَعبَدٍ بِعاقِبةٍ وأَخلَفت كُلَّ مَوعِدِ[2]

ومنهم من كان يستهل قصيدته بالرثاء مباشرة، ولسيطرة عاطفة الحزن والأسى على الراثي جعلت الشاعر يلجأ إلى عالم الرثاء مباشرة ويستهل بها مفتتحه النصي، ومن ثم يستهل المهلهل بن ربيعة قصيدته بالتفجع والحسرة والصراخ علي المرثي، قائلًا:

أَهَاجَ قَذَاءَ عَيْنِي الإِذِّكَارُ هُدُوًّا فَالدُّمُوعُ لَهَا انْحِدَارُ

وَصَارَ اللَّيْلُ مُشْتَمِلًا عَلَيْنَا كأنَّ الليلَ ليسَ لهُ نهارُ[3]

وإذا كان الرثاء يتوجه في عمومه إلى رثاء الغير، مثل رثاء الابن والأخ والزوج والصديق والملوك والأمراء وغيرهم، فإن الشاعر استخدم الرثاء لنفسه أيضًا، فعندما كان يشعر بدنو موته فكان يرثي نفسه، وكان يصف حاله بعد الموت، وحال

١ الذبياني، النابغة (١٩٨٥)، ص ١١٥.

٢ ابن الصِّمَّة، دُرَيْد (١٩٨٥)، ص ٥٧.

٣ ابن ربيعة، مهلهل (١٩٩٣)، ص ٣١.

أهله في حزنهِ عليه، ووضعه في كفنه الأبيض بعد الانتهاء من تنظيف جسده وتصفيف شعره ولف جسده بثياب غير ثيابه، ومن ذلك قصيدة "الممزق العبدي" التي مطلعها:

هَلْ للفتَى مِنْ بَنَاتِ الدّهْرِ مـنْ واقِ أمْ هَلْ لَهُ من حِمـام المـوتِ مـن راقِ

قَدْ رَجَّلُونِي وما رُجِّلْتُ مـن شـعَثٍ وأَلْبُـسونِي ثِيَابًـا غَيْـرَ أَخْلَـاقِي

ورَفَعُـوني وقـالوا أَيُّمَـا رَجُـلٍ وأَدْرَجُـونِي كـأني طَـيُّ مِخْـرَاقِ

وأَرْسَلُوا فِتيةً مـن خَيـرِهِمْ حَـسَبًا لِيُسْنِدُوا في ضـريحِ التُّـرْبِ أَطْبَـاقِي[1]

وتجدر الإشارة إلى أن عاطفة الرثاء وقوتها تختلف عما إذا كان الراثي أو الشاعر يرثي ذاته عندما يشعر بدنو موته أو رثاء الشاعر للأهل والأقارب والأصدقاء، وعما إذا كان الشاعر يرثي شخصًا لا يمت إليه بصلة، مثل رثاء الملوك والرؤساء والأمراء؛ أي إن عاطفة الرثاء خرجت من نطاقها المعنوي الروحي إلى نطاقها المادي التكسبي، إن كان الرثاء على غير علاقة قوية تربط الشاعر بالراثي إلا ذكر كرمه الفياض، وإغداقه المال عليه؛ وقد حفلت قصائد الشعر القديم بمثل هذا النوع من الرثاء مثلما حفلت بغيره. وربما أتصور أن ذلك كان سببًا في أن ينظر "قدامة بن جعفر" و"ابن رشيق" إلى الرثاء على أنه نوعًا من المدح كما أشرت إلى ذلك سلفًا. ومن ثم اكتسب الرثاء أهميته من كونهِ غرض يرتبط بالوجدان والعاطفة لتعبيره عن اللوعة والفقد والحزن من ناحية، ومن ناحية أخرى: يرتبط بغرض قوي من أغراض القصيدة العربية، أو يكاد هو الغرض نفسه، وهو المدح. فكلما اتسعت دائرة الفنون الأدبية واتجاهاتها، تأثر فن الرثاء بها وتأثر بآثارها، فنهج مناهج مختلفة، واتجه اتجاهات متنوعة.

١ الضبي، أبو العباس المفضل بن محمد (١٩٧٩)، ص ٣٠٠.

(٣)

تعد المفضليات أول منتخب شعري يضم مختارات من عيون الشعر القديم بروايات موثوق بصحتها؛ ويشير "عبد السلام هارون"، في تقديمه لشرح المرزوقي لحماسة أبي تمام، إلى أن "القصائد المفضليات" التي صنعها المفضل الضبي هي "أقدم ما وصل إلينا من كتب الاختيارات..... وهو اختيار لقصائد طويلة من عيون الشعر، لم يرتبها المفضل على أبواب خاصة، ولا قصد أن يجمع الشعر الذي يتناول أغراضًا معينة، وإنما هو اختيار الذوق الأدبي والجزالة اللغوية، فيما تراءى له في ذلك العصر"[١]. أما شعراء هذه الاختيارات فمعظمهم شعراء جاهليون، وقليل منهم مخضرمون، وأقل منهم إسلاميون[٢].

وتشتمل المفضليات على مائة وثلاثين قصيدة، ويروي "ابن النديم" في الفهرست أن "المفضل الضبي" عمل هذه الأشعار المختارة للخليفة المهدي (حين كان وليًا للعهد)، "وهي مائة وثمانية وعشرون قصيدة قد تزيد أو تنقص"[٣]. وقد ذكر شاكر وهارون في مقدمة تحقيقهما وشرحهما للمفضليات تحت عنوان أولية المفضليات أن "هذه المفضليات في يدنا ١٢٦، شرحها أبو محمد الأنباري الكبير، يضاف إليها أربع قصائد ألحقت بها ووجدت في بعض النسخ. فتلك ١٣٠ قصيدة نستطيع أن نجزم أنها ليست كلها من اختيار المفضل الضبى، بل إنه ليس له من الاختيار فيها إلا القليل، وإلا أن قرأ عليه بعضَها تلميذهُ أميرُ المؤمنين المهدي حين كان ولى العهد لأبيه أبي جعفر المنصور، ثم قُرئت عليه بعد ذلك ونُسبت إليه، وعُرفت باسمه"[٤].

لقد تناول "المفضل الضبي" في منتخبه الشعري نماذج ليست بالكثيرة عن الرثاء، أو على حد وصف "مي خليف": "يبدو موقف المفضل من الرثاء غريبًا، إذ توشك المفضليات أن تخلو منه إلا ما ورد عرضًا في شعر الحرب من أبيات متناثرة

١ هارون عبد السلام (١٩٦٧)، القسم الأول ، ص ٦.

٢ راجع: إسماعيل، عز الدين (١٩٩٤)، ص ٧٣.

٣ ابن النديم، أبو الفرج محمد بن اسحاق (٢٠٠٩). الجلد الأول، ٢٠٦.

٤ الضبي، أبو العباس المفضل بن محمد (١٩٧٩)، ص ١٠

في رثاء قتلى الأيام التي دارت رحاها بين القبائل، وهي أبيات متفرقة لا تشكل قصائد مستقلة"[١]. وعلى الرغم من قلة النماذج المتعلقة بفن الرثاء في المفضليات، فإن "مي خليف" تصرح باحتواء المفضليات على قصائد ومقطوعات (جاهلية وإسلامية) تنتمي إلى غرض الرثاء بأشكاله المتنوعة[٢].

أشرت سلفاً إلى الأشكال المتنوعة للرثاء، والقصائد التي وردت في المفضليات في فن الرثاء تضمنت هذه الأشكال المتنوعة. فمن رثاء الأبناء كانت عينية أبي ذؤيب الهذلي (مفضلية ١٢٦)، ولمتمم بن نويرة قصيدتان في رثاء أخيه مالك (مفضلية ٦٧ و ٦٨)، وفي رثاء ابن العم كانت ميمية المرقش الأكبر (مفضلية ٥٤)، وفي رثاء الصديق كانت قصيدة السفاح اليربوعي (مفضلية ٩٢)؛ ويأتي رثاء الذات ممثلًا في قصيدة عبد يغوث بن وقاص الحارثي (مفضلية ٣٠)، وقصيدة الممزق العبدي التي أشرت إليها سلفاً (مفضلية ٨٠)، وقصيدة أُفنون التغلبي وهي مقطوعة شعرية قصيرة (مفضلية ٦٥)؛ ومن رثاء النساء قصيدة لامرأة من بني حنيفة وهي مقطوعة شعرية قصيرة (مفضلية ٦٩).

تتوجه هذه الدراسة إلى قصيدة الرثاء في المفضليات، وسوف تعمد إلى قراءة نماذج مختارة من أشكال الرثاء، ولا يمكن أن تدعي دارسة موجزة مثل هذه أنها تقرأ جميع النماذج التي وردت في المفضليات، ولكنها ستكتفي بنماذج مختارة منها، ففي رثاء الأقارب والأصدقاء قرأت قصيدتي متمم بن نويرة في رثاء أخيه، وفي رثاء الذات كانت قصيدة أفنون التغلبي، وفي رثاء النساء كانت قصيدة لامرأة مجهولة من بني حنيفة.

(٤)

متمم بن نويرة بن جمرة بن شداد بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار، ويكنى متمم بن نويرة أبا نهشل، ويقال: أبو تميم وأبو فجعان وأبو إبراهيم، وكان أعور، وهو شاعر

١ خليف، مي يوسف (١٩٨٩)، ص ٩٥.

٢ راجع السابق، وبنوع خاص المبحث الخاص بالرثاء ص ٩٥ إلى ص ٩٩.

مخضرم، عاش ردحًا من حياته في الجاهلية والآخر في الإسلام، إذ توفي نحو سنة ٣٠ هجرية، وقد أسلم هو وأخوه مالك وحسن إسلامه[١]. ووضعه "ابن سلام الجمحي" في طبقة المراثي: "وصيَّرْنا أصحاب المراثي طبقة بعد العشر طبقات"[٢]، فكان أول الطبقة متمم بن نويرة مع الخنساء وأعشي باهلة وكعب بن سعد بن عمرو بن عقبة، وقدمه ابن سلام على شعراء هذه الطبقة: "والمقدَّمُ عندنا متمم بن نويرة، ويكنى أبا نهشل، رثى أخاه مالك بن نويرة.... وبكى متمم مالكًا فأكثر وأجاد"[٣]. ويشير "عز الدين بن الأثير" بأن متممًا كان "شاعرًا محسنًا، لم يقل أحد مثل شعره في المراثي التي رثى بها أخاه مالكًا"[٤].

يقول متمم بن نويرة في عينيته (مفضلية ٦٧) التي يرثي فيها أخاه مالك بن نويرة[٥]:

١- لَعَمْرِي وما دَهْرِي بتأْبِينِ هَالِـكٍ ولا جَـزِعٍ مِمَّـا أَصَـابَ فأَوْجَعَـا

يفتتح "متمم بن نويرة " مرثيته بالقسم "لعمري" تمهيدًا للإعلان عن موت أخيه، وذلك لم يكن همه وإرادته وعادته، ولكن ليعبر بها عن الفاجعة والأسى لموت أخيه. ويرسم الشطر الثاني من المفتتح بدوال الجزع والوجع فرط حزنه وألمه العميق على فراق أخيه مالك الذي تبدي واضحًا من صوره وأحاسيسه الصادقة، ويواصل عرض حزنهِ العميق لفقد أخيه مالك، حيث لم يكن هذا الحزن ناتجًا من وطأة مصيبة الفقد والسلب، بقدر ما كان هذا الحزن نابعًا من وطأة الإحساس بالقهر والظلم. ويؤكد ذلك ما رواه "الأصفهاني": " صلى متمم بن نويرة مع أبي بكر الصُّبح، ثم أنشده قوله:

نِعـمَ القتيـلُ إذا الرِّيـاحُ تناوَحَـتْ تحـتَ الإزارِ قتَلْـتَ يـابنَ الأَزْوَرِ

---

١ راجع تفصيل ترجمة وأخبار متمم وخبر مقتل أخيه مالك في:
- الأصفهاني، أبو الفرج على بن الحسين (٢٠٠٨)، المجلد الخامس عشر، ص ٢٠٣ إلى ص ٢١٨.
- المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسي (٢٠٠٥)، ص ٤٩٩-٥٠٠.
- الزركلي، خير الدين (٢٠٠٢)، الجزء الخامس، ص ٢٤٧.

٢ الجمحي، محمد بن سلام (١٩٨٠)، السفر الأول، ص ٢٠٣.

٣ السابق، ص ٢٠٤ وص ٢٠٩.

٤ ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الجزري (٢٠٠٣)، ص ٥٤.

٥ الضبي، أبو العباس المفضل بن محمد (١٩٧٩)، ص ٢٦٥.

أَدَعَوتَـــهُ بـــاللهِ ثُـــمَّ قَتَلْتَـــهُ لـــو هُـــو دعَـــاكَ بذِمَّـــةٍ لـــمْ يَغـــدر

فقال أبو بكر: واللّه ما دعوته ولا قتلته. فقال:

لا يُـضمرُ الفحـشاءَ تحـت ردائِـهِ حلـــوٌ شـــمائله عفيـــفُ المئـــزرِ

ولَنِعمَ حَشْوُ الـدِّرعِ أنـت وحاسـرًا ولـــنعم مـــأوى الطـــارقِ المتنـــوِّرِ

ثم بكى حتى سالت عينُه، ثم انخرط على سِيَة قوسِه متكئًا. يعني مغشيًّا عليه"[1].

وما دار بين متمم والخليفة أبي بكر يتضافر مع ما دار بينه وبين الخليفة عمر بن الخطاب، إذ يُروى أنه "لمّا استشهد زيد بن الخطّاب يوم مسيلمة ودخل متمّم على عمر بن الخطّاب فقال له: أنشدني بعض ما قلت فى أخيك، فأنشده شعره الذى يقول فيه:

وكُنَّـــا كَنَـــدْمَانَيْ جَذِيْمَـــةَ حِقْبَـــةً مِن الـــدَّهرِ حتـــى قيـــلَ لـــنْ يَتَـــصَدَّعَا

فَلَمَّـــا تَفَرَّقْنَـــا كَـــأَنِّي وَمَالِكًـــا لِطُولِ اجتمـــاعٍ لـــم نَبِـــتْ لَيْلَـــةً مَعَـــا

فقال له عمر: يا متمّم، لو كنت أقول الشعر لسرّني أن أقول فى زيد بن الخطاب مثل ما قلت فى أخيك، قال متمّم: يا أمير المؤمنين، لو قتل أخي قتلة أخيك ما قلت فيه شعرًا أبدًا، فقال عمر: يا متمم، ما عزاني أحد فى أخي بأحسن ممّا عزّيتني به"[2].

إن الروايتين تتضافران من حيث دلالتهما على إحساس متمم بأن مالِكًا قتل مظلومًا، ومن ثم كانت إجابته على عمر بن الخطاب بأن موتة أخيه زيد، الذي قتل شهيدًا في ساحات الحرب والقتال، تختلف بالقوة والفعل عن موتة أخيه مالِك الذي هُدر دمه ظلمًا، وقتل فيمن قتل من المرتدين ومانعي الزكاة. إن مرثية متمم بن نويرة تتأسس دائمًا على الاحساس الشديد بالفقد نتيجة غياب مالك الذي يبدو وكأنه تكثيفًا

١ الأصفهاني، أبو الفرج على بن الحسين (٢٠٠٨)، المجلد الخامس عشر، ص ٢٠٧-٢٠٨.

٢ ابن قتيبة، أبو عبد الله محمد بن مسلم (١٩٨٢)، الجزء الأول، ص ٣٣٨.

لمعاني الحياة والوجود بأكمله بالنسبة لمتمم. ومن فرط حبه لأخيه، الذي عجز عن رد الظلم عنه أو الثأر لدمه وحقه، راح يسبغ الصفات الجميلة عليه يقول متمم[١]:

٢- لقد كَفّنَ المنْهَـالُ تَحْـتَ ردَائـِهِ فَتًى غيـرَ مبْطَـانِ العَـشِيّاتِ أَرْوَعَـا[٢]

٣- ولا بَرَمًا تُهْدِي النِّـسَاءُ لعِرْسِـهِ إذا القَشْعُ مِنْ حَـسِّ الـشّتاءِ تَقَعْقَعَـا[٣]

٤- لَبِيبُ أَعَانَ اللُّـبَّ منـهُ سـماحةٌ خَصِيبٌ إذا مَا رَاكِبُ الجْـدبِ أَوْضَـعَا[٤]

٥- تَرَاه كَصَدْرِ السَّيْفِ يَهْتَـزُّ للنّـدى إذا لم تجدْ عِندَ امْرئِ السَّوْءِ مَطْمَعَـا[٥]

يبكي متمم بكاءً شديدًا لفقد مالك، ويتحسر على فقد الصفات الجميلة التي فُقدت معه أو بالأحرى الصفات التي كان يتسم بها. ومما يزيد من فرط ألمه وحسرته أن الموت طوى مالكًا وأخفاه في التراب، وقد قام المنهال (والمنهال هو ابن عصمة بن الرياحي) بتأدية وظيفته في تكفين مالكًا بثوبه حين رآه مقتولًا بأمر من خالد بن الوليد الذي خرج لقتال أهل الردة، فبث السرايا وأمرهم بداعية الإسلام وأن يأتوه بكل من لم يجب، وإن امتنع أن يقتلوه. فجاءته الخيل بمالك بن نويرة، ثم كان بينهما ما فهم خالد منه أن مالكًا مصر على الرِّدة، فأمر "ضرار بن الأزور الأسدي بقتله، فقتله في من قتل من مانعي الزكاة والمرتدين[٦]؛ وقد أشار الشراح القدامى إلى أن من عاداتهم عند القتل "يمر الرجل بالقتيل فَيُلْقي عليه ثوبه يستره به، ومن ثم ألقى الرجل ثوبه على مالك أخي

---

١ الضبي، أبو العباس المفضل بن محمد (١٩٧٩)، ص ٢٦٥.

٢ المنهال هو الذي كَفَّنَ مالك وهو ابن عصمة الرياحي. غير مبطان العـشيات: لا يعجـل بالعـشاء وينتظـر الضيفان. الأروع: الذي إذا رأيته راعك بجماله وحسنه.

٣ البرم بفتح الراء: الذي لا يدخل مع القوم في الميسر. تُهْدِي النِّسَاء: أي أنه ليس ممن تعطي النساء زوجه لحمًا في شدة الشتاء. القشع: بيت من جلد.

٤ الخصيب: الرحب الفناء السهل السخي. أوضع: أسرع.

٥ كصدر السيف: أراد به السيف نفسه.

٦ حول قصة مقتل مالك راجع:

- الأصفهاني، أبو الفرج على بن الحسين (٢٠٠٨)، المجلد الخامس عشر، ص ٢٠٦.
- الجمحي، محمد بن سلام (١٩٨٠)، السفر الأول، ص ٢٠٤.

متمم، وكذلك كانوا يفعلون"[١]. ويجدر الانتباه إلى أن متمم ذكر المنهال تنويهًا بفضله وإكبارًا له، حيث أشار "عبد الله الطيب" إلى أن متمم: "قد عجل إلى ذكر المنهال لينوه بفضيلة ما أسدى من يد الوفاء، حيث كفن مالكًا ولم يخش أن يؤخذ عليه ما أبدى من المروءة"[٢].

ومن ثم لم يكن هذا الحزن الشديد الذي سيطر على حياة متمم بدافع الحب لمالك فقط، بل كان، أيضًا، بسبب الإحساس بالظلم لقتله. يتعجب متمم على موت أخيه ذلك الفتى الذي يمتلك القوة والصفات المثالية المتعددة، فكم كان جميل الروح والقلب، إذا نظرت إليه راعك جماله وحسن روحه وهذا ما جسدته لفظة (أروعا)، فصفاته المعنوية تتضافر مع صفاته المادية المتمثلة في شدة كرمه واحتفاله بالضيف الذي يكرمه في وقت العشي وهو في أشد الأوقات احتياجًا. وقد خصَّ متمم العشيات "لأنه وقت الأضياف فيصف أنه لا يهتم في ذلك الوقت بنفسه، وإنما يهتم بالأضياف"[٣]. لقد كان مالكًا يساند ضيفه ويحتويه بسعة قلب وترحيب قوي فهو فتى غير مبطان العشيات.

ويستمر متمم في سرد مثاليات مالك وخصاله المتفردة، فكان مالكًا ميسرًا، ييسر في وقت الجدب على الناس، وتأتي عبارة: "ولا بَرَمًا" متضافرة مع عبارة "تهدي النساء"، التي تومئ إلى أنه ليس ممن تعطي النساء زوجه لحمًا في شدة الشتاء، ولهذا تضافر العبارتان معا ليجعل مالكًا من المتفضلين على الناس في وقت الشتاء البارد. ومازال متمم يضفي على أخيه الصفات المتفردة، ويعد مالكًا رمزًا للخصب المثمر، أو بالأحرى: إذا جاء إلى مالك مجدب مسرع، وجده خصيبًا مريعًا وهذا ما جسده قوله: "خَصِيبٌ إذا مَا رَاكِبُ الجْدبِ أَوْضَعَا". ويصف مالكًا بقوة صدر السيف، أو يكاد يكون هو السيف نفسه، وفي هذا الصدد يفسر "التبريزي"، في شرح اختيارات المفضل، ذلك

١ الأنباري، أبو محمد القاسم بن محمد بن بشار (١٩٢٠)، ص ٥٢٧.

٢ الطيب، عبد الله (١٩٩٢)، الجزء الرابع، القسم الثاني، ص ٢٣٢.

٣ السابق، ص ٥٢٧.

المعنى بأنه: "ينفذُ في إقامة المروءة، والكشف بالعطية نفاذ السيف في الضريبة"[١]. وتضيف "ابتسام مرهون الصَّفار" تفسيرًا آخر يشير إلى ارتباط شعر "متمم" بالأخيلة والصور البيانية ارتباطًا واضحًا، تكتب "الصفار": "ويبدو أن متممًا مولع بالحركة وتصوير الاهتزاز السريع، فهو يصف فرحة أخيه مالك إذا طلبت منه المساعدة، وكيف أنه يهتز للندى اهتزاز السيف في الحرب"[٢]. ويستمر متمم في سرد صفات أخيه مالك فيقول[٣]:

٦- ويومًا إذا ما كَظَّكَ الخَصْمُ إن يَكُنْ نَصِيرَكُ منهم لا تَكُنْ أنتَ أضيَعَا[٤]

٧- وإنْ تَلْقَهُ في الشَّرْبِ لا تَلق فاحِشًا على الكأْسِ ذَا قاذُرَةٍ مُتزَبِّعَا[٥]

٨- وإن ضَرَّسَ الغَزْوُ الرِّجَالَ رأَيْتَهُ أخا الْحَرْبِ صَدْقًا في اللِّقاءِ سَمَيْدَعَا[٦]

٩- ومَا كان وقَّافًا إذَا الخيلُ أَجْحَمَتْ ولا طَائشًا عِند اللِّقاءِ مُدفَّعَا[٧]

١٠- ولا بِكَهامٍ بَزُّهُ عن عَدُوِّهِ إذا هُوَ لاقَى حاسرًا أو مُقنّعَا[٨]

١١- فَعَيْنَيَّ هَلا تَبْكِيانِ لِمَالِكٍ إذا أذْرَتِ الرِّيحُ الكَنِيفَ المُرَفَّعَا[٩]

١٢- وللشَّرْبِ فَابْكِي مالِكًا وَلِبُهْمَةً شديدٍ نَوَاحِيهِ على مَنْ تَشَجَّعَا[١٠]

---

١ التبريزي، يحيي بن علي الخطيب (١٩٨٧)، الجزء الثالث، ص ١١٦٩.

٢ الصفار، ابتسام مرهون (١٩٦٨)، ص ٥٠-٥١.

٣ الضبي، أبو العباس المفضل بن محمد (١٩٧٩)، ص ٢٦٥-٢٦٧.

٤ كظك: إذا بلغ منك غاية الغم حتى يقطعك عن الكلام. يكن: الضمير لمالك أخيه.

٥ الشرب: القوم يشربون. يقال للرجل الذي يتبرم بالناس ويتقذر منهم، إنه لقاذوره: أي لسوء خلقه. المتزبع: سيئ الخلق الذي يؤذي الناس ويشارهم.

٦ ضرس: كدح وأثر فيهم. الصَدق: الصلب. السميدع: الجميل الشجاع المديد القامة.

٧ أجْحَمَتْ : بتقديم الجيم، جبنت وكفت. وأراد بالخيل أصحابها. المدفع: المدفوع يرغب عن حضوره لجبنه.

٨ البز: السلاح. الكهام: الكليل: أي ليس سلاحه بكليل عن عدوه. الحاسر: الذي لا سلاح عليه. المقنع: لابس السلاح.

٩ أذرت: ألقت. الكنيف: حظيرة من شجر تجعل للإبل تقيها البرد. المرفع: المرفوع المعلي. وإنما تذري الريح الكنيف في شدتها وشدة البرد.

١٠ البهمة: الشجاع.

١٣- وَضْيفٍ إذا أَرْغَى طُرُوقًــا بَعِيــرَهُ وَعَانٍ ثَوَى فــي القِــدِّ حَتَّــى تَكَنَّعَــا[١]

١٤- وأَرْمَلَةٍ تَمْــشِي بأَشْــعَثَ مُحْتَــلٍ كَفَرْخِ الحُبــارى رأْسُــهُ قــد تَــضَوَّعَا[٢]

١٥- إذَا جَرَّدَ القَوْمُ القِــداحَ وأُوقِــدَتْ لَهُمْ نارُ أَيْــسَارٍ كَفَــى مَــنْ تَــضَجَّعا[٣]

١٦- وإنْ شَهِدَ الأَيْسارَ لم يُلْــفَ مالــكٌ علي الفَرْثِ يَحْمِي اللَّحْــمَ أنْ يُتَمَزَّعَــا[٤]

إن الدال "كظّك" يشير إلى أن "الذي بلغ منك غاية الغم حتى يقطعك عن الكلام. كظك أي ملأك غمًّا وغيظًا: يقال كَظّنِي الشيءُ يكُظُّنِي وكَظَظْتْ الإناءَ إذا مَلأْتَهُ فَأَنْتَ كَاظُّهُ وهو مكْظوظ وكَظِيظ "[٥]. وكأن متمم بهذا الدال يستمد القوة والنصرة بوجود مالك في حياته أو كأن مالكًا ناصرك ويشد أزرك فلن يغلبك العدو أو الخصم. ويذكر متمم أن مالِكًا كان طيب اللسان لا يؤذي أحدًا ممن يجلس معهم، وقد تبدى ذلك في مجلس الشرب الذي يجتمعون فيه، فإن لقيته في ذلك المجلس "وجدتَهُ سمح الخُلقُ، ليّنًا هيّنًا، لا يأتي بالفحشاء عليهم. بل تراه جميل العِشرةِ، حميد الصحبة"[٦]. لم تكن هذه الصفات المتصلة بمالك هي التي أبكت متمم بن نويرة وكانت سببًا لرثائه فقط، ولكن يضاف إليها أن مالكًا كان فارسًا مغوارًا في ساحات الحرب عندما تضرس الحرب الفرسان وتطحنهم، فهو في مداومته للوغى يبرز أنيابه، وهو عينه في اللقاء ذلك الجميل المديد القامة: "أخا الْحَرْبِ صَدْقًا في اللِّقاءِ سَمَيْدَعَا". ويستمر في إضفاء الفروسية والشجاعة على أخيه، فهو الفارس البطل الذي إذا الخيل أجحمت وجبنت عن الإقدام، وكفت عن الاقتحام، يتقدم هو بكل شجاعة وإقدام، ولم يقف بل يحتاج إليه كل

---

١ العاني: الأسير. ثري: أقام. القد: السير من الجلد، أراد القيد. تكنح: تقبض، يعني حتى يبس القيد علي جلده.

٢ الأرملة: التى مات زوجها. الأشعث: المتبلد الشعر، عنى به ولدها. المحتل: الذي أسيء غــذاؤه. الحبــاري: ضرب من الطير. تضوع: تفرق، أراد شعره.

٣ الأيسار :جمع يسر، بفتحتين، وهم أشراف الحي الذين ينحرون لهم في الجدب، ويطعمون بالميسر. تضجع في الأمر: تقعد ولم تقم به.

٤ شهدهم: حضرهم. الفرث: حشوة الكرش. يتمزع: يتقطع ويفرق.

٥ الأنباري، أبو محمد القاسم بن محمد بن بشار (١٩٢٠)، ص ٥٢٩.

٦ التبريزي، يحيي بن علي الخطيب (١٩٨٧)، الجزء الثالث، ص ١١٧٠.

من يلاقي الحروب معه لأنه قوي ليس بطائش ولا جبان: "ولا طَائشاً عِند اللِّقاءِ مُدَفَّعَا". وإن كان سيف من يلقى الحرب معه لا يقطع، فمالك ناصره عند اللقاء حتى وإن كان حاسر السيف، أي بدونه.

إن مالكًا هو المأوى والملاذ والكنف للمحتاجين، ومتمم يطلب من عينيه أن تجود بالبكاء عليه، فهو في الوقت الذي أذرت فيه الرياح وأفنت علي كل شيء من شدتها وشدة بردها كان هو الساعد والعضد لإطعام الناس والمحتاجين. ومازال يطلب متمم من عينيه أن تستمر في البكاء علي فقده لأخيه الذي كان يسقيهم ويرْفِدُهم وينحر لهم. لقد كان مالكًا شجاعًا فارسًا، وكان في شجاعته يقوم مقام مائة من الرجال، فهو بُهْمَة، ويقال: "أمرُ مُبهَمُ اذا كان مُرْتَجًا لا باب لهُ، ويقال للشجاع بُهْمَة يريد أنّهُ لا تُصابُ منه غِرَّةٌ من نواحِيهِ"[1]. وإذا كانت هذه المعاني التي أَبَّنَ بها متمم أخاه "قد عرفها العرب أيام الجاهلية، واستمرت بعد ظهور الإسلام، فإنّ هناك معانٍ أبطلها الإسلام أو نهى عنها، ومع ذلك فقد ذكرها متمم في رثائه لأخيه سائرًا في ذلك على نهج شعراء الجاهلية دون أن يتأثر في شعره بالمباديء الإسلامية. ومن ذلك تكرر وصفه لعفة أخيه حين يشرب الخمر، ورجاحة عقله، التي لا يفقدها إذا ما شرب"[2]. ويشير متمم إلى أن صفات مالك كانت تخصه وحده دون غيره، وهكذا يصير غياب مالك غيابًا لهذه القيم، وهي، كما أشرت سلفًا، متمثلة في إغاثة الملهوف، فلا يجد متمم نصيرًا له بعد فقد مالك. لقد كان مالِكًا خصيبًا للمجدب، نديمًا رائعًا في مجلس الشرب، وطيب خلقه مع رفاقه، وكان لبيبًا سمحًا، نصيرًا للمظلوم، عونًا للفقير والمحتاج، مُطعمًا للطعام وقت اهتزاز الرياح وقوتها وشدة بردها؛ ومن ثم كان حصنًا حصينًا للضيف الذي أَرْغَى طُرُوقًا، ويقال: "إنّما يُرْغِي بَعِيرهُ إذا أَتَى الحيَّ لِيَسْمَعُوا الرُغاءَ فَيَعْلَمُوا أنهُ رُغاءُ ضيفٍ فيدعوهُ إلى منازلهم. والطروق في الليل"[3].

---

١ الأنباري، أبو محمد القاسم بن محمد بن بشار (١٩٢٠)، ص ٥٣١.

٢ الصفار، ابتسام مرهون (١٩٦٨)، ص ٤٨.

٣ الأنباري، أبو محمد القاسم بن محمد بن بشار (١٩٢٠)، ص ٥٣١.

لقد كان مالكًا عونًا للمحتاج، سندًا للأرملة، أبًا لليتيم وناصرًا لحقوقه رحيمًا عليه: "وأرْمَلَةٍ تَمْشِي بأَشْعَثَ مُحْتَلٍ"؛ وبغيابه غابت تلك الخصال والقيم الحميدة كلها، ومن ثم يندب متمم ويبكي على غياب مالكٍ، ويجب على هؤلاء الذين يذكرهم أن يبكوا مالكًا، وأن يبكوا أنفسهم بعد فقد وغياب مالك. وتأتي عبارة "أَبى الصَّبْرَ" محملة بقوة الصراع بين متمم والصبر على فراق أخيه، يقول متمم[1]:

١٧- أَبَى الصَّبْرَ آياتٌ أَراها وأَنَّني أَرَى كُلَّ حَبْلٍ بَعْدَ حَبْلِكَ أَقْطَعَا[2]

١٨- وأَنِّي متى ما أَدعُ باسْمِكَ لا تُجِبْ وكُنْتَ جديرًا أنْ تُجيبَ وتُسْمِعَا

١٩- وعِشْنا بِخَيْرٍ في الحياةِ وقَبْلَنَا أَصَابَ المَنَايا رَهطَ كِسْرَى وتُبَّعَا

٢٠- فلمَّا تَفَرَّقْنَا كأَنِي ومَالِكًا لِطُولِ اجْتِماعٍ لم نَبِتْ لَيْلَةً مَعَا[3]

٢١- وكُنَّا كَنَدْمَانَيْ جَذِيمةَ حِقْبَةً مِنَ الدَّهْرِ حتَّى قِيلَ لَنْ يَتَصَدَّعَا[4]

٢٢- فإنْ تَكُنِ الأيّامُ فَرَّقْنَ بَيْنَنَا فقد بَانَ مَحْمُودًا أخي حِينَ وَدَّعَا

إن متمم لا يقدر الصبر، فكل المعالم والآثار التي يراها تذكره بأخيه وبصفاته وقيمه الحسنة، أو كما يقول الشارح القديم: "وأَبى الصَبْر مَعَالِمُ أَرَاها من آثارك فأَذْكُرُك إذ رأَيْتُها فلا أَقْدِرُ على الصبر فهذا معنى قوله أَبَى الصبر"[5]؛ ولهذا يصرح متمم بأن كل مواصلة بعد فراق أخيه قطعًا: "وأَنَّني أَرَى كُلَّ حَبْلٍ بَعْدَ حَبْلِكَ أَقْطَعَا". ثم يعطف البيت الثامن عشر على سابقه بلفظة: "وأَنِّي"، ليضيف ويؤكد على صفاته القيمة، صفة إغاثة الملهوف والمستغيثُ به، "كنتُ إذا أَجبتَ أَسْمعتَ المستَغِيثَ بكَ، ولم تُحوِجْه إلى

١ الضبي، أبو العباس المفضل بن محمد (١٩٧٩)، ص ٢٦٧.

٢ أبى الصبر: لا أقدر على الصبر.

٣ لطول اجتماع: أي بعد طول اجتماع.

٤ الندمان: النديم.

٥ الأنباري، أبو محمد القاسم بن محمد بن بشار (١٩٢٠)، ص ٥٣٤.

وراجع: التبريزي، يحيي بن علي الخطيب (١٩٨٧)، الجزء الثالث، ص ١١٧٦.

إعادة. والمعنى فيه التقديمُ أي: تَسمَعَ، فتُجيبَ"[1]. ويدرك متمم أن المنايا التى أصابت أخيه مالكًا وأدركتهُ، أصابت من قبله رهط كسرى وقوم تبع. وكأن متمم يُعَزِّي بذلك نفسه ويصبرها على ما ابتلاها: "أَصابَ الْمَنَايَا رَهْطَ كِسْرَى وَتُبَّعَا".

بغياب مالك غابت القيم الإيجابية، حيث تم فقد الأخ والنصير والمأوى والمعين، وصار الاستنجاد به يرتد على صاحبه دون جدوى؛ أي يرتد محملًا بالحسرة والحزن على فراقه. أما الشعراء فقد وجدوا في بكاء متمم لأخيه نهجًا يسيرون على دربه، ومثالًا يحتذون به ويشبهون به حزنهم وآلامهم ويضربون به مثلًا في طول تلازم الحزن والبكاء، ومن ذلك قول "الشريف الرضي" ضاربًا المثل بفجيعة متمم بن نويرة في أخيه مالك:

فَقَدْ فَجَعَ المَاضِي لَبِيدًا بِأَرْبَدٍ وَعُزّيَ قَبْلِي مَالِكٌ مِنْ مُتَمِّمِ[2]

يبدو أن مالكًا كان الحياة بأكملها بالنسبة لأخيه متمم، تلك الحياة التي كانت مصدر الطمأنينة والأمان لمتمم، ومن ثم غابت وتهددت تلك الطمأنينة وتبدلت إلى قفر ووحشية بغياب وفقد مالك. إن فقد مالك جعل متمم وحيدًا وغريبًا، وكأنه بانقطاع مالك عن الحياة انقطع متمم عن اتصاله بالماضي الذي كان مالِكًا بطله وفارسه؛ وتبدى ذلك الانقطاع عن الحياة وارتباط متمم بالماضي جعله يلمس قفر ويأس الحاضر. وقد غطت الأفعال الماضية المرتبطة بماضي متمم ومالك مساحة كبيرة من مرثيته، ومن ثم كانت دوال (كَفَّنَ / أوجعَا / أذرت / عشنا / تفرقنا / كنَّا / فرقنَّ / أصَاب / وَدَّعَا) التي تحمل صيغة الماضي والحياة التي كانت، والتي جمعت مالك ومتمم معًا. يقول متمم[3]:

٢٣- أَقُولُ وقد طَارَ السَّنَا فِي رَبَابِهِ وجَوْنٌ يَسُحُّ المَاءَ حَتَّى تَرَيَّعَا[4]

---

١ التبريزي، يحيي بن علي الخطيب (١٩٨٧)، الجزء الثالث، ص ١١٧٦.

٢ الشريف الرضي، أبو الحسن محمد بن حسين بن موسى (١٩٦١)، المجلد الثاني، ص ٣٩٩.

٣ الضبي، أبو العباس المفضل بن محمد (١٩٧٩)، ص ٢٦٧-٢٦٨.

٤ السنا: ضوء البرق. الرباب: السحاب يرى دون السحاب. الجون ههنا: السحاب الأسود. التريع بالتحتية: التردد، يقال للسحاب "يتريع" إذا كثر فصار متحيرًا مترددًا.

٢٤- سَقَى الله أرضًا حَلَّهَا قَبْـرُ مَالِـكٍ ذِهَـابَ الغَـوَادِى المُـدْجِنات فَأَمْرَعَـا[١]

٢٥- وآثَـرَ سَـيْلَ الـوَادِيَيْنِ بِدِيمَـةٍ تُرَشَّحُ وَسْـيِمًا مِـنْ النَّبْـتِ خِرْوَعـا[٢]

٢٦- فَمُجْتَمَعَ الأَسْدَامِ مِنْ حَوْلِ شَـارِعٍ فَـرَوَّى جِبَـالَ القَـرْيَتَيْنِ فَـضَلْفَعَا[٣]

٢٧- فوَ اللهِ ما أُسْـقِي الـبِلاَدَ لِحُبِّهَـا ولَكِنَّنِـي أُسْـقِي الحَبِيـبَ المُوَدَّعَـا[٤]

٢٨- تَحِيَّتَـهُ مِنِّـي وإنْ كَـانَ نَائِيًـا وأَمْـسَى تُرَابًـا فَوْقَـهُ الأرضُ بَلْقَعَـا[٥]

يجاهد متمم في بث الحياة مرة أخرى في هذا الماضي ومحاولة استدعائه من جديد على أرض الواقع المرير، أي الحياة التي يعيشها بدون أخيه مالك، وذلك من خلال الدعاء بالسقيا لقبر مالك: "سَقَى الله أرضًا حَلَّهَا قَبْرُ مَالِكٍ". ومن فرط حب متمم لأخيه مالك لم يكتفِ بالدعاء بالسقيا لقبر مالك، وذلك بنزول المطر الناعم الذي يدوم أيامًا بلا ريح علي قبره، بل شمل الدعاء مناطق متباعدة، وأن يكون هذا المطر قادرًا على إقامة فعل تعمير وإخصاب لتلك المناطق، وبعث الحياة فيها من جديد.

وكأن متممًا لا يدعو بالسقيا ونزول المطر لقبر مالك فقط، بل الدعاء بالسقيا لكل بقاع الأرض التي عاش عليها مالك (شارِع، جبال القَرْيَتَيْنِ، ضَلْفَع)، أو كأن متممًا يرى أن قبر مالك يمتد في كل الأراضي التي دعا لها بالسقيا، مثل امتداد حب مالك في قلبه وفي قلوب الآخرين. ويصرح متمم بأن الأرض كلها صارت قبر مالك لذا فهو يدعو بالسقيا لكل البلاد والمناطق البعيدة، يقول متمم:

فَـوَ اللهِ مَـا أُسْـقِي الـبِلاَدَ لِحُبِّهَـا ولَكِنَّنِـي أُسْـقِي الحَبِيـبَ المُوَدَّعَـا

---

١ الذِهاب: جمع ذِهبة، بكسر الذال فيهما وهي المطرة الغزيرة. الغوادي: التي تغدو بالمطر. المدجنات: السحاب التي تأتي بالدجن، والدجن تغطية السماء بالسحاب. أمرع: أخصب وأتي بالخصب.

٢ الديمة: المطر يدوم أيامًا بلا ريح. ترشح: تربي وتنمي. الوسمي: أول النبات. الخروع: اللين من كل شيء.

٣ الأسدام: جمع سدم، وهو الماء المندفن يتغير من طول المكث. شارع، والقريتان، والضلفع: مواضع.

٤ أُسقي: من الرباعى أدعو بالسقيا، ويقال سقاك الله.

٥ أرض بلقع: لا أحد بها ولا نبات.

ومن ثم كان الدعاء بالسقيا، هو دعاء لتجديد الماضي واستحضاره واقعًا ملموسًا. لقد تملك الحزن عقل متمم وفؤاده فيقول[1]:

٢٩- تَقُولُ ابْنَةُ العَمْرِيِّ مالَـك بَعْـدَمَا أَرَاكَ حَـدِيثًا نَـاعِمَ البَـالِ أَفْرَعَـا[2]

٣٠- فَقُلْتُ لَهَا طُولُ الأَسَى إذْ سَـأَلْتِينِي ولَوْعَةُ حُـزْنٍ تَتْـرُكُ الوَجْـهَ أَسْـفَعَا[3]

٣١- وفَقْدُ بَنِي أُمٍّ تَـدَاعَوْا فَلَـمْ أَكُـنْ خِلَـافَهُمُ أنْ أَسْـتَكِينَ وأَضْـرَعَا[4]

٣٢- ولَكِنَّنِي أَمْضِي عَلَـى ذَاكَ مُقْـدِمًا إذا بَعْضُ مَنْ يَلْقَى الحـرُوبَ تَكَعْكَعَـا[5]

٣٣- وَغَيَّرَنِي مَا غَـالَ قَيْـسًا ومالِكًـا وعَمْـرًا وجَـزْءًا بالمُـشَقَّرِ أَلْمَعَـا[6]

٣٤- وما غَالَ نَدْمانِي يَزِيـدَ ولَيْتَنِـي تَمَلَّيْتُـهُ بالأَهْـلِ والمَـالِ أَجْمَعَـا[7]

٣٥- وإِنِّي وإنْ هازَلْتِنِي قَـدْ أَصَـابَنِي مِنَ البَثِّ ما يُبْكِـي الْحَـزِينَ المُفَجَّعَـا[8]

لقد ضرب الحزن عقل متمم وتملك منه كما أشرت إلى ذلك سلفًا، ولهذا تلومه زوجته، التي صرح بأنها ابْنَةُ العَمْرِيِّ، على شحوبه وتغيره بعد أن كان منذ قريب ناعم البال هادئ النفس قرير العين، ولفرط حزنه على رحيل مالك فقد شعر رأسه الغزير والكثيف. إن الشحوب والتغير وفقدان الشعر علامات تحيل إلى فكرة الضعف والوهن. لقد أصاب رحيل مالك قلب متمم وأصبح معمودًا بالأسي. إن اللوم لا يأخذ موقعًا فعالًا في عقل متمم وقلبه، بل إن الأسي والحزن على فراق مالك لا مفر منه، وإذا كان الأمر

---

١ الضبي، أبو العباس المفضل بن محمد (١٩٧٩)، ص ٢٦٨-٢٦٩.

٢ ابنة العمري: هي زوجته.

٣ لوعة الحزن: حرارته. أسفع: من السفعة وهي سواد يضرب إلى حمرة.

٤ تداعوا: تبع بعضهم بعضا. خلافهم: بعدهم. الضرع: الذلة والاستكانة.

٥ التكعكع: الرجوع والنكوص.

٦ غال: أهلك. قيس وعمرو: رجلان من بني يربوع، وجزء: هو ابن سعد الرياحي، وهؤلاء قوم قتلهم الأسود بن المنذر يوم أوارة. ومالك: أخو متمم. المشقر: حصن بالبحرين. ألمعا: يريد الذين معًا.

٧ يزيد: كان نديمه وابن عمه. تمليته: عشت معه ملاوة من الدهر وتمتعت به، والملاوة: بتثليث الميم، مدة العيش. بالأهل: بدلا من أهلي ومالي.

٨ البث :الحزن الشديد.

كذلك فلا معنى لهذا اللوم في هذا الموقف، لأنه بفقد مالك فقد كل معاني الحياة. ويتجلى في البيت الواحد والثلاثين دال الفقد: "وَفَقْدُ بَنِي أُمٍّ"، الذي يشير إلى فقد كل ما هو غال ونفيس. ويستمر في مخاطبة ابنة العمري (زوجته) ليؤكد لها فكرة التحلي بالصبر والتجلد أمام الشامتين والتمسك بالقوة في مواجهة الشدائد ونكبات الدهر غير مستكين ولا خاضع، إنه يقبل المواجهة والتحدي ماضيًا بعزيمته التي لا تتكعكع أي لا تتراجع ولا ترتد إلى الوراء. ثم يسرد لها ما أحدث الدهر من نكبات أصابت غيره مثلما أصابته، لكن ما نزل به "ما مثله يغلب الصبر والتجلد حتى يحمل صاحبه على البكاء"[1]؛ لكنه يتجلد عليه مخافة الشماتة. لقد أخذ التجلد والصبر مداه فلا يلجأ لأحد في الشدائد، ولا حتى أنه يخضع لأقربائه للمعاونة والمساعدة، يقول متمم[2]:

٣٦- ولستُ إذَا مَا الدَّهْرُ أَحْدَثَ نَكْبَةً وَرُزْءًا بِزَوَّارِ القَرَائِبِ أَخْضَعَا[3]

٣٧- قَعِيدَكِ أَلَّا تُسْمِعِينِي مَلَامَةً ولا تَنْكَئِي قَرْحَ الفُؤَادِ فَيِيجَعَا[4]

٣٨- فقَصْرَكِ إنِّي قد شَهِدْتُ فلَمْ أَجِدْ بِكَفِّي عنهمْ لِلْمَنِيَّةِ مَدْفَعَا[5]

٣٩- فلَا فَرِحًا إنْ كنْتُ يومًا بِغِبْطَةٍ ولا جَزِعًا مِمَّا أَصابَ فأَوْجَعَا

٤٠- فلو أَنَّ ما أَلْقَى يُصِيبُ مُتَالِعًا أَو الرُّكْنَ من سَلْمَى إذًا لَتَضَعْضَعَا[6]

لا يستجيب متمم في رثائه لأخيه مالك إلى اللوم، فاللوم ينكأ قرح الفؤاد، ويثير الأوجاع، ويجتهد متمم في أن يصور أن فقد مالك يعد كارثة إنسانية وفاجعة كبرى؛ ولهذا لا يفرح لغبطة تتجدد ولا

١ الأنباري، أبو محمد القاسم بن محمد بن بشار (١٩٢٠)، ص ٥٤٠.

٢ الضبي، أبو العباس المفضل بن محمد (١٩٧٩)، ص ٢٦٩.

٣ القرائب :جمع قرابة بفتح القاف بمعنى القريب. الأخضع :الراضي بالذل.

٤ قعيدك: أصله "قعيدك الله" وهو من أيمان العرب، كقولهم نشدتك الله. لا تنكئي: من قولهم "نكأت القرحة" إذا قشرتها. فييجعا: من الوجع.

٥ قصرك: أقلي وأقصري. شهدت: يعني أنه حضر مصارعهم.

٦ متالع وسلمى: جبلان فيهما صلابة وقوة.

يبتئس لنكبة تصيبه من الدهر. ويصور متمم أن الحزن الذي ينتابه لفقد مالك لو انتاب هذا الحزن الجبال لتهدمت، وقد خص بالذكر جبال متالع وسلمى وهي جبال تمتاز بالقوة والصلابة وصعوبة اختراقها، ومع ذلك فإن حزن متمم على أخيه يكاد يهدمها ويفتتها. ومن عالم الجبال الذي يصور من خلاله شدة الحزن إلى عالم الحيوان الذي يرسم صورة التآلف الذي لا يلقاه في عالم البشر، يقول متمم[1]:

٤١- وما وَجْدُ أَظْآرٍ ثَلاثٍ رَوَائِمٍ أَصَبْنَ مَجرًّا من حُوَارٍ ومَصْرَعَا[2]

٤٢- يُذَكِّرْنَ ذَا البَثِّ الحَزِينَ بِبَثِّهِ إذَا حَنَّتِ الأُولَى سَجَعْنَ لهَا مَعَا

٤٣- إذَا شَارِفٌ مِنْهُنَّ قامَتْ فرَجَّعَتْ حَنِينًا فأَبْكَى شَجْوُها البَرْكَ أَجْمَعَا[3]

٤٤- بِأَوْجَدَ مِنِّي يومَ قَامَ بِمَالِكٍ مُنَادٍ بَصِيرٌ بالفِراقِ فَأَسْمَعَا[4]

يرسم متمم صورة الأظآر الثلاث اللواتي فقدن وليدهن (حُوَار) وهو ولد الناقة، فهؤلاء الثلاث يبكين وليدهن بكاءً شديدًا. وعلى الرغم من أن متمم لم يذكر لنا ابن مَنْ مِن هؤلاء الثلاث، ولم يذكر لنا، أيضًا، سبب فقدانه، ولكنه ذكر بقوة أن هؤلاء الأظآر كانوا على درجة واحدة ومستوى واحد من الحزن والتأسي، وأن حنين كل واحدة من الثلاث كان كفيلًا بأن يُبكي ألفًا من الإبل: "حَنِينًا فأَبْكَى شَجْوُها البَرْكَ أَجْمَعَا"، لما كان يحمله حنينها وشوقها إلى حوارها المفقود. لقد عقد متمم مقارنة بين عالم الحيوان الذي يعطف بعضه

---

١ الضبي، أبو العباس المفضل بن محمد (١٩٧٩)، ص ٢٧٠.

٢ الآظار: جمع ظئر، وهي العاطفة علي غير ولدها المرضعة له، من الناس والأبل. الروائم: جمع رائم، وهن المحبات اللائي يعطفن علي الرضيع. الحوار: ولد الناقة وجمعه حيران. المجر والمصرع : مصدران من الجر والصرع.

٣ الشارف: المسنة من الإبل، وإنما خصها لأنها أرق من الفتية، لبعد الشارف من الولد. البرك :الألف من الإبل.

٤ بأوجد: بأشد وجدًا.

على بعض، ولم يشعر في هذا العالم أحد بالغربة والوحدة، وبين عالم البشر الذي ينتمي إليهم عندما شعر بالحزن حينما فقد أخيه ولم يتضامن معه من البشر أحد.

ومثلما شبه متمم نفسه بقوة الجبال الصلبة التي تتهدم وتتفتت من شدة الحزن على أخيه مالك، أو قدرته على تحمل الحزن والفقد، التي فاقت قوة الجبال الصلبة القوية، فإنه يشبه نفسه بالناقة التي ذُبح ابنها وفُقد، هذه الناقة "الشارف"، كما يقول الأصمعي، هي "الناقة المسنة من الإبل، وإنما خصها لأنها أرق من الفتية"[1]. وقد جاء بالناقة المسنة حتى تكون دافعًا أكثر لإشاعة الحزن والأسى؛ ثم يعرض لنا أن هذه الشارف التي فقدت وليدها تبكي وتنوح شأنها في ذلك شأن نواح ألف ناقة من النوق، ومع ذلك فإن حزنه وبكائه على مالكٍ يفوق حزن وبكاء هذه الناقة الشارف.

ومن عالم الحيوان الذي هو عالم التراحم والتعاون والمشاركة إلى عالم البشر الشامتين، يقول متمم[2]:

٤٥- أَلَمْ تَأْتِ أَخْبَارُ المُحِلِّ سَرَاتَكُمْ فَيَغْضَبَ منكم كُلُّ مَنْ كان مُوجَعَا[3]

٤٦- بِمَشْمَتِهِ إِذْ صَادَفَ الحتْفُ مَالِكًا ومَشْهَدِهِ ما قدْ رَأَى ثُمَّ ضيَّعَا[4]

٤٧- أَ آثَرْتَ هِدْمًا باليًا وسَوِيَّةً وجِئْتَ بِها تَعْدُو بَرِيدًا مُقَزَّعَا[5]

٤٨- فَلاَ تَفْرَحَنْ يومًا بِنَفْسِكَ إِنَّنِي أَرَى الموتَ وَقّاعًا على مَنْ تَشَجَّعا

٤٩- لَعَلَّكَ يومًا أنْ تُلِمِّ مُلِمَّةٌ عَليكَ مِنَ اللَّائي يَدَعْنَكَ أَجْدَعَا[6]

---

١ الأنباري، أبو محمد القاسم بن محمد بن بشار (١٩٢٠)، ص ٥٤٢.

وراجع أيضًا: التبريزي، يحيي بن علي الخطيب (١٩٨٧)، الجزء الثالث، ص ١١٨٨.

٢ الضبي، أبو العباس المفضل بن محمد (١٩٧٩)، ص ٢٧٠.

٣ المحل: هو ابن قدامة بن أسود بن أوس بن الحمرة بن جعفر بن ثعلبة بن يربوع، مر بمالك بن نويرة مقتولًا فنعاه كأنه شامت.

٤ بمشمته: يعني شماتة المحل بمقتل مالك.

٥ الهدم: الكساء الخلق. السوية: كساء محشو بليف أو نحوه. المقزع: السريع الخفيف.

٦ الأجدع: مقطوع الأنف أو الأُذن.

٥٠- نَعَيْتَ امْرَأً لو كان لحْمُـكَ عنـدَهُ لآوَاهُ مَجْمُوعًـــا لـــه أَو مُمَزَّعَـــا[١]

٥١- فَلا يَهْنِئِ الواشِينَ مَقْتَـلُ مَالِـكٍ فقـــد آبَ شـــانِيه إيابًـــا فَوَدَّعَـــا[٢]

لم يبكِ متمم بكاءً شديدًا على غياب مالك فقط، ولكنه بكى أيضًا على قومه الذين تخلوا عن إنصاف مالك وتركوه يقتل ظلما؛ ويخص من هؤلاء القوم الذين تخلوا عن نصرة أخيه بل وشمتوا في مقتله؛ ومن مثل هؤلاء الْمُحِل، "والْمُحِلُّ هو: ابن قدامة بن أسود بن أوس بن الحمرة بن جعفر بن ثعلبة بن يربوع، مر بمالك بن نويرة مقتولًا فنعاه كأنه شامت"[٣]. لقد كان حزن متمم الدفين كبيرًا، وذلك لتخاذل قومه عن مالك، وصمتهم عن قتله؛ وقد جسدت الدوال المتشرة في المقطع الأخير من العينية هذا الحزن: (يغضب / موجعا / بمشمته / صادف الحتف مالكا / ضيّعا). إن متمم يعلن أن الْمُحِلَّ لم يكتفِ بشماتته في مقتل مالك، "بل ضنَّ بثيابه أن يكفن فيها مالكا، وأتى مسرعًا بخبره كمجيء البريد"[٤]. ويختتم متمم بن نويرة مرثيته بالدعاء على الواشين والشامتين في مقتل مالك بعدم الهناء والشقاء وانعدام الحياة، تلك الحياة التي انقطعت بانقطاع مالك وفقده:

فَـــلا يَهْنِـــئِ الواشِـــينَ مَقْتَـــلُ مَالِـــكٍ فقـــد آبَ شـــانِيه إيابًـــا فَوَدَّعَـــا

(٥)

في عينية أخرى (مفضلية ٦٨) يرثي متمم مالكًا، ولقد كان متمم متفردًا بالحزن والبكاء على مالك، ومن ثم بدأ هذه العينية بالحديث عن حزنه على مالك وانتهى به أيضًا. وبين البدء والختام أو النهاية يصف مالكًا ويصوره أبلغ تصوير، ويسرد صفاته الجميلة وقيمه العليا التي كان يتفرد بها دون غيره، وذكرياته معه دون الالتفات إلى أي موضوعٍ آخر. ومن ثم نلاحظ في قصائد متمم على وجه العموم وتلك

١ الممزع: الممزق أو المفرق.

٢ الشانئ: المبغض، وسهلت الهمزة هنا.

٣ الأنباري، أبو محمد القاسم بن محمد بن بشار (١٩٢٠)، ص ٥٤٣.

٤ الضبي، أبو العباس المفضل بن محمد (١٩٧٩)، ص ٢٧٠.

العينية على وجه الخصوص خلوها من التقاليد الفنية المتبعة في القصيدة القديمة مثل: الوقوف على الطلل وذكر الحبيب والرحلة وغير ذلك من الأغراض المتنوعة، فلم يكن متمم مهمومًا بتلك التقاليد، وإنما كان مهمومًا بالتعبير عما بداخله من حزن دفين وألم عميق لفقد وغياب مالك. يقول متمم[1]:

١- أَرِقْتُ ونامَ الأَخْلِياءُ وهاجَنِي مع اللَّيلِ هَمٌّ في الفُؤَادِ وَجِيعُ[2]

٢- وهَيَّجَ لِي حُزْنًا تَذَكُّرُ مالِك فما نِمْتُ إلَّا والفُؤَادُ مَرُوعُ[3]

٣- إذا عَبْرَةٌ ورَّعْتُها بَعْدَ عَبْرة أَبَتْ واستَهَلَّتْ عَبْرَةٌ ودُمُوعُ[4]

٤- كما فاضَ غَرْبٌ بَيْنَ أَقْرُنِ قامةٍ يُرَوِّي دِبارًا ماوءُهُ وزُرُوعُ[5]

٥- جَدِيدٌ الكُلَى وَاهِي الأَدِيمِ تُبِينُهُ عنِ العِبْرِ زَوْرَاءُ المَقَامِ نَزُوعُ[6]

٦- لِذِكْرَى حَبِيبٍ بعد هَدْءٍ ذَكَرْتُهُ وقد حانَ من تالِي النُّجُومِ طُلُوعُ[7]

٧- إذَا رَقَأَتْ عَيْنَايَ ذَكَّرَنِي بِهِ حَمَامٌ تَنَادى في الغُصُونِ وُقُوعُ[8]

٨- دَعَوْنَ هَدِيلًا فاحْتَزَنْتُ لِمَالِكٍ وفي الصَّدرِ من وَجْدٍ عليه صُدُوعُ[9]

---

١ السابق، ص ٢٧١-٢٧٢.

٢ الأرق: ذهاب النوم. الأخلياء: جمع خلي وهو الذي لا هم له.

٣ المروع: الفزع وهو مفعول من الروع.

٤ العبرة: الدمعة. ورعتها: كففتها. استهلت: انصبت ولها وقع.

٥ الغرب: الدلو العظيمة. القامة: بكرة البئر. وأقرنها: أراد به قرنيها، استعمل الجمع للمثنى وهما حائطان أو خشبتان تعلق عليهما البكرة. الدبار: سواق تكون في أصول النخل. ذروع: رفعها.

٦ الكُلي: رقاع تكون عند أُذن الدلو، وإنما جعلها جددًا لأنها لم تنتفخ سيورها فتملأ الثقب فهي تسيل لذلك. الواهي: المتخرق، فهو أجدر أن يسيل، وشبه دموعه بذلك. تبينه: تبعده. العبر: بكسر العين وسكون الباء، الناحية مثل الشط ونحوه. الزوراء من الآبار: التي في جرابها عوج، فهو أشد لاضطراب الدلو فيها. نزوع: ركية قريبة القعر.

٧ الهَدء: بفتح الهاء بعد ساعة من الليل. تالي النجوم: ما طلع منها في آخر الليل.

٨ رقأت: ذهبت دمعها.

٩ الهديل: ذكر الحمام ويقال: هو صوت الحمام. احتزنت: افتعلت من الحزن. الصدوع: الشقوق.

٩- كأَنْ لم أُجَالِسْهُ ولـم أُمْـسِ لَيْلَـةً أَراهُ ولـم يُـصْبِحْ ونَحـن جَمِيـعُ

يفتتح متمم عينيته، التي يعبر فيها عن حزنه الشديد لغياب مالك، بفعل الأرق، والأرق هو غياب النوم أو انقطاعه، والنوم لا يأتي إلا لهؤلاء الأخلياء الذين لا هم لهم يؤرقهم ويحزنهم مثله هو. إن متمم يريد أن يعلن عن تفرده بالأرق والهم، والناس جميعًا أخلياء نيام، وكأنه يعلن عن هول الفاجعة التي يعيش فيها بمفرده دون محيطه الاجتماعي. هكذا يعيش متمم في عزلة وغربة تناوشه بالليل فيثقل عليه الهم، ويصرح بأن قلبه في فزعٍ مستمر كلما هيجه حزنه على مالك: "فما نِمْتُ إِلَّا والفُؤَادُ مَرُوعُ"، أو بعبارة التبريزي: "ما نمت إلا ساهرًا. وكأن اتصال السهر له شغل وقت النوم عنه، فنومه سهر، وكذلك هذا لم يُثبت لنفسه نومًا"[١]. لقد صاحب الأرق والحزن والسهر البكاء والدموع التي يذرفها متمم على مالك، والتي لا ينضب معينها، وكأنها تشبه ماء الدلو الواهي. إن البكاء يستمر من بداية الليل حتى نهايته، وتلعب الذاكرة دورًا محوريًا في عملية البكاء:

لِـذِكْرَى حَبِيـبٍ بعـد هَـدْءٍ ذَكَرْتُـهُ وقد حانَ مـن تـالِي النُّجُـومِ طُلُـوعُ

ويقف متمم إزاء بكاء الهديل أو بكاء الحمام الحزين مقرًا أنه ليس بحاجة إلى ما يهيج أحزانه، ففي صدره من الوجد ما يكفي لبكاء أخيه مالك: "وفي الصَّدرِ من وَجْدٍ عليه صُدُوعُ". إن ما يحزن متمم حقًا ويهيج آلامه هو مشاركة جماعات الهديل في البكاء لهذا الفرخ الذي مات، فمن عاداتهم البكاء والحزن على الميت حتى لو لم يعرفوه من قبل، أي إن الصورة التي حشدها متمم للهديل وبكائه جاءت لتلبي معاناة الشاعر نفسيًا واجتماعيًا؛ وكأن متممًا يعاني من فقد الألفة والانسجام مع الحياة التي يعيش فيها بدون مالك. لكن متمم يستدعي مالكًا بصفاته وأخلاقه الرفيعة، يقول متمم[٢]:

١٠- فَتًى لَمْ يَعِشْ يومًا بِذَمٍّ ولَـمْ يَـزَلْ حَوَالِيْـهِ مِمَّـنْ يَجْتَدِيـهِ رُبُـوعُ[٣]

١ التبريزي، يحيي بن علي الخطيب (١٩٨٧)، الجزء الثالث، ص ١١٩٣-١١٩٤.

٢ الضبي، أبو العباس المفضل بن محمد (١٩٧٩)، ص ٢٧٢-٢٧٣.

٣ يجتديه: يطلب جدواه. الربوع: جمع ربع وهو المنزل،أي يكثر حوله النازلون.

١١- لَهُ تَبَـعُ قَـد يَعْلَـمُ النّـاسُ أَنَّـهُ على مَـن يُـدَانِي صَـيِّفٌ ورَبِيـعُ[١]

١٢- ورَاحَتْ لِقاحُ الحَيّ جُدْبًا تَـسُوقُها شَـآمِيَةٌ تَـزْوِي الوُجُـوهَ سَـفُوعُ[٢]

١٣- وكانَ إذا ما الضَّيْفُ حَـلَّ بِمَالِـكٍ تَـضَمَّنَهُ جَـارٌ أَشَـمُّ مَنِيـعُ[٣]

١٤- لَعَمْرِي لَنِعْمَ المَرْءُ يَطْرُقُ ضَـيْفُهُ إذا بَـانَ مِـنْ لَيْـلِ التّمَـامِ هَزِيـعُ[٤]

١٥- بَذُولُ لِمَا في رَحْلِـهِ غيـرُ زُمَّـحٍ إذا أَبْـرَزَ الحُـورَ الرَّوائِـعَ جُـوعُ[٥]

١٦- إذَا الشَّمْسُ أَضْحَتْ في السَّمَاءِ كأَنَّهَا منَ المَحْـلِ حُـصٌّ قَـد عَـلاهُ رُدُوعُ[٦]

ويستطرد متمم في عرض صفات مالك الجميلة، فهو مثال متفرد بخصاله حيث لم يعش مذمومًا بين أهله، بل كان يكسب الحمد منهم، "ويتعطف على طلاب جدواه، فلا يزال بفِنائه من عُفاته ربوع"[٧]. إن مالكًا كما يصور متمم نموذج للكرم والجود، ومن يأوي إليه يعيش في كنفه عيشة المتنعم بجوده وكرمه، وكان منزله عامرًا بالنازلين إليه وحوله، كما أنه من فرط عطائه يقوم للناس والضيوف في أوقات الجدب مقام الغيث الناعم المتمثل في مطر الصيف والربيع، مستجيبًا لمطالبهم وحاجاتهم. ويصف متمم مالكًا بأنه قوي يستجار به وقت الشدائد والمحن، حيث لم يذل أحد وهو في جواره ومعيته: "تَضَمَّنَهُ جارٌ أَشَمُّ مَنِيعُ"؛ ومن فرط حبه لأخيه مالك فقد تصوره أيضًا معينًا قويًا لا ينضب ولا يجف عطائه في أيام الجدب والشدة، فكأنه بعطائه

١ تبع: جمع تابع. يداني: يقاربه ويأتيه. الصيّف: بتشديد الياء المطر الذي يجيء في الصيف.

٢ اللقاح: جمع لقحة وهي الناقة الحلوب. جدب: مهازيل لا تجد كلأ ولا مرعى. الشآمية: ريح الشمال من قبل الشام. تزوي الوجوه: تجمعها وتقبضها من شدتها. السفوع: التي تسفع الوجه أي تضربه.

٣ تضمنه: ضمنه وكفله.

٤ بان: مضى. ليالي التمام: بكسر التاء لا غير هي أطول ليالي الشتاء. الهزيع: قطع من الليل دون النصف.

٥ الزمح: القصير البخيل، وفسر بالقصير الدميم ونحو ذلك. الحور: البيض. الروائع: المعجبات.

٦ المحل: القحط والشدة. ردوع: جمع ردع وهو لطخ من الزعفران.

٧ التبريزي، يحيي بن علي الخطيب (١٩٨٧)، الجزء الثالث، ص ١١٩٦.

وجوده تصفو السماء، وتطلع الشمس قوية ساطعة تستمد قوتها ودفئها من جود مالك وفرط عطائه.

(٦)

ومن رثاء الأقارب والأهل والأصدقاء الذي مثله متمم بن نويرة في رثاء أخيه مالك (مفضلية ٦٧ و٦٨) إلى رثاء الذات التي تمثله مقطوعة أُفْنُون التغلبي (مفضلية ٦٥). وأُفْنُون رجل من بني تغلب، واسمه في شرح الأنباري للمفضليات: صُرَيم بن مَعْشر بن ذُهل بن تَيْم بن عمرو بن مالك بن حُبَيْب بن عمرو بن غَنْم بن تغلب[١]؛ ولقب بأُفْنُون أو فَنَّه، كما يشير ابن حبيب، قوله: إن للشُّبان أُفنونا[٢]. وتروي كتب الأخبار أنه "لَقِي كَاهِنًا فَسَأَلَهُ عَن مَوته فَقَالَ: تَمُوت بمكَان يُقَال لَهُ: إلاه بِكَسْر الْهمزَة. فَمكثَ مَا شَاءَ الله ثمَّ سَار إِلَى الشَّام فِي تِجَارَة ثمَّ رَجَعَ فِي ركب من بني تغلب فضلُّوا الطَّرِيق فَلَقوا إنْسَانًا فاستخبروه فنعت لَهُم فَقَالَ فِي نَعته: إِذا رَأَيْتُمْ إلاهة حيَّ لكم الطَّرِيق، وإلاهة: قارةٌ بالسّماوة فَلَمَّا أتوها نزل أَصْحَابُه وَقَالُوا لَهُ: انْزِلْ. فَقَالَ أُفنون: وَالله لَا أنزل، فَجعلت نَاقَته ترتعى عرفجًا فلدغتها أَفْعَى فِي مشفرها فاحتكَّت بساقه والحيَّة مُتَعَلِقَة بمشفرها فلدغته فِي سَاقه فَقَالَ لأخ مَعَه: احْفِرْ لي قبرًا فإنِّي ميِّت"[٣]. ويُروى أنه قال تلك المقطوعة قبل موته أو حين لدغته الحية، يقول أُفْنُون التغلبي[٤]:

١- أَلَا لَسْتُ في شَيْءٍ فَرُوحًا مُعاوِيَا ولَا المُشْفِقَاتُ إذ تَبِعْنَ الحَوازِيَا[٥]

١ راجع: الأنباري، أبو محمد القاسم بن محمد بن بشار (١٩٢٠)، ص ٥٢٢-٥٢٣.

٢ راجع: ابن حبيب، أبو جعفر محمد (١٩٩١)، ص ٣٤٣.

٣ البغدادي، عبد القادر بن عمر (١٩٩٧)، الجزء الحادي عشر، ص ١٥١-١٥٢.

وراجع أيضًا: - ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (١٩٨٢)، الجزء الأول، ص ٤١٩.

- ميدان، أيمن محمد (١٩٩٥)، ص ١٣٤.

٤ الضبي، أبو العباس المفضل بن محمد (١٩٧٩)، ص٢٦١.

٥ الشيء: اسم لكل ما يجوز أن يعلم أو يخبر عنه. فروح: كثير الفرح. المشفقات: النساء ذوات الشفقة. الحوازي: واحدها حازٍ، وهو الزاجر الطير أو الكاهن.

٢- فَلَا خَيْرَ فِيما يَكْذِبُ المَرْءُ نَفْسَهُ وَتِقْوَالِه لِلشَّيْءِ يَا لَيْتَ ذَا لِيَا[١]

٣- فَطَأْ مُعْرِضًا إنَّ الحُتُوفَ كَثِيرَةٌ وإنَّكَ لا تُبْقِي بِمالِكَ باقِيَا[٢]

٤- لَعمْرُكَ ما يَدْرِي امرُؤٌ كَيْفَ يَتَّقِي إذا هُوَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ اللهُ وَقِيَا

٥- كَفَى حزَنًا أَنْ يَرْحَلَ الحَيُّ غُدْوَةً وأُصْبحَ فِي أَعْلَى إلَاهَةَ ثاوِيَا[٣]

يفتتح أُفنون التغلبي نصه الشعري الذي يرثي به نفسه بالإشارة إلى الحزن الذي أصابه ولا يستطيع دفعه، وأنه ليس هناك شيء يحمل إليه خبرًا مفرحًا سارًا مبهجًا أو لينًا، وقد فسر الشارح القديم هذا البيت بقوله: "إني لا أقدر أن أدفع عنِّي شيئًا كُتبَ عليَّ، وكذا النساءُ المُشفقات، إذ تبعن الكواهن يسألنهم، لايُغنين عما أشفقن عليه شيئًا"[٤]. يبدو أن معرفة أُفنون بمصيره المحتوم الذي أخبره به الكاهن جعله يدرك أن القدر هو الغالب المنتصر مهما تمنى هو لنفسه من الفرح والبقاء، إنه زائل لا محالة، فلا تخدعك الأكاذيب والأماني الباطلة؛ ومن ثم تأتي عبارة: "يَا لَيْتَ ذَا لِيَا"، معبرة عن التمني، والمنادى في تلك العبارة محذوف، فكأنه يقول متمنيًا يا قوم ليت ذا ليا. إنه يخاطب نفسه أو صاحبه ويقول:" أَقْدم على ما يعرض لك، واركب ما يعطيك ظهره، عالمًا أن أنواع المكاره كثيرة"[٥]. ويقرر أفنون أن المرء مهما احتال لنفسه وتصور من أماني يتوق لها، فإنه لا ريب سيلقي الذي قدر وكُتب له؛ وقد أكد قوله: "إنّكَ لا تُبقى بمالكَ باقِيَا" هذه الأفكار التي كانت تجوب في عقله، وفسر "التبريزي، ذلك بقوله: "إن المال لا يحرسك، ولا يدفع مكروهًا عنك، وهو بعَرْضِ الزَّوالِ، وإن اجتهدتَ في تبقيتهِ"[٦].

---

١ فيما يكذب نفسه: في أمانيه الباطلة. تقول: مصدر بمعنى القول بفتح التاء، ورواه الأصمعي بكسر التاء، وهو شيء نادر؛ لأن المنصوص عليه في مثله الفتح، وأنه لم يسمع بالكسر إلا تبيان وتلقاء.

٢ طأ: ضع قدمك. الحتوف: المكاره.

٣ إلاهة :قارة بسماوة كلب، ومات بها أفنون مسمومًا.

٤ التبريزي، يحيي بن علي الخطيب (١٩٨٧)، الجزء الثالث، ص ١١٥٨.

٥ السابق، ص ١١٥٨.

٦ السابق، ص ١١٥٨.

وعلى الرغم من تخبط الإنسان الجاهلي وعدم اهتدائه إلى القانون الديني، والدستور العقائدي الذي يبين له أن هناك بعث من جديد، وهناك حساب وعقاب، وهناك حياة وموت وحياة أخرى بعد الموت، فإن أُفنون أدرك أن له يوم ومكان مكتوب عليه موعد للرحيل عن الدنيا، وأنه مهما يعلل نفسه بأقوال الكهان وحديث الأماني، فإنه لا ريب سيلقي الذي قُدر له وكُتب عليه. وطبقًا لهذا التصور، راح "أُفنون " ينعي نفسه نعيًا حزينًا، وطلب من قومه أن يرحلوا عنه ويتركوه عند موته وحيدًا، وأن يحفروا له قبره في "إلَاهَة" قائلًا:

كَفَى حزَنًـا أَنْ يَرْحَـلَ الحَـيُّ غُـدْوَةً وأُصْـبحَ فِـي أَعْلَـى إِلَاهَـةَ ثاوِيَـا

وهكذا نجد أن قصيدة الرثاء عكست التجارب الذاتية للراثي وما يعانيه من قلق الموت والخوف منه، وتجسد ذلك الانعكاس في لحظات الموت الكبرى، وضمن تجربة الرثاء الشعرية.

(٧)

والنموذج الأخير لقصيدة الرثاء في المفضليات الذي يمثل رثاء النساء، هو قصيدة امرأة من بني حَنِيفَةَ ترثي يزيدَ بنَ عبد اللَّه بن عمرٍو الحَنَفِيَّ (مفضلية ٦٩) [١]:

١- أَلَـا هَلَـكَ ابْـنُ قُـرَّانَ الحَمِيـدُ أَخُـو الجُلَّـى أَبـو عَمْـرٍو يزِيـدُ[٢]

٢- أَلَـا هَلَـكَ امْـرُؤٌ هَلَكَـتْ رِجَـالٌ فلَـم تُفْقَـدْ وكَـان لَـهُ الفُقُـودُ[٣]

٣- أَلَـا هَلَـكَ امْـرُؤٌ حبَّـاسُ مـالٍ علَـى العِلَّـاتِ مِـتْلافٌ مُفِيـدُ[٤]

٤- أَلَـا هَلَـكَ امْـرُؤٌ ظَلَّـتْ علَيـه بِـشَطِّ عُنَيْـزَةٍ بَقَـرٌ هُجُـودُ[٥]

---

١ الضبي، أبو العباس المفضل بن محمد (١٩٧٩)، ص ٢٧٢-٢٧٣.

٢ الجلي: تأنيث الأجل من الأمر الجليل. يزيد: بدلًا من أبي عمر.

٣ الفقود: مصدر فقد.

٤ حباس: يحبس إبله في فنائه لا يدعها تسرح. العلّات: الشدائد والمصائب.

٥ عنيزة: قرية أو قرى بالبحرين. الهجود: الساهرات التاركات للنوم.

٥- سَـمِعْنَ بِمَوْتِـهِ فَظَلِلْـنَ نَوْحًـا قِيامًـا مـا يَحِـلُّ لَهُـنَّ عُـودُ[١]

هذه المقطوعة من مراثي النساء، وفيها يظهر أسلوب المرأة في الرثاء، حيث بكت هذه المرأة صاحبها، لما له من صفات محمودة وخصال جليلة، ولإحسانه وتفرده في حل الأمور العظيمة، أو بعبارة الشارح القديم: "يريد أنه كان رَكّابًا للأمور الجليلة"[٢]؛ وتجلى ذلك بقولها: "أَخُو الجُلَّى أَبو عَمْرٍو يزِيدُ". وتتعجبُ هذه المرأة الراثية من حال الدنيا حيث هلك بها رجال لكن لم تشعر الناس بفقدهم وذلك لقلة خيرهم وخمولهم، أما يزيد بن عبد الله بن عمرو الحنفي لكرمه وأفضاله ونباهته فقد فقده الناس: "وكان لهُ الفُقُودُ". إن المرأة تبكي على الكرم والشجاعة التي فُقدت بفقد يزيد، حيث كان من المعهود عنه أنه يحبس إبله في فناء داره، ولا يدعها تسرح أو يطلق لها العنان، حتى تكون قريبة منه؛ فإذا جاءه ضيفًا قراه، أو صاحب حَمَالةٍ أَعطَاه؛ ومن فرط كرمه وسخائه، وصفته بأنه متلاف مفيد.

إن تجمع كل هذه الصفات في شخص يزيد وتفرده بها جعل يوم موته يوم فاجعة كبرى، ويوم الذهول لفراقه، ويوم البكاء الشديد وخاصة لدى النساء اللواتي فقدن الحياة والجود والكرم بفقدان "يزيد"؛ ومن ثم حزنت عليه النساء وبكته بكاء شديدًا. لقد برعت الشاعرة في تشبيه هؤلاء النساء الباكيات بالبقر لأنهم لا ينقطعن عن البكاء: "ظَلَّتْ علَيه بِشَطٍّ عُنَيْزَةٍ بَقَرٌ هُجُودُ". وعندما سمعن بموته لم يفترن عن النحيب والنواح: "سَمِعْنَ بِمَوْتِهِ فَظَلِلْنَ نَوْحًا". ولم تكتف المرأة بوصف النساء بالبكاء والنواح على "يزيد"، بل جعلتهم لا يطعمن شيئًا حزنًا عليه، أو بعبارة أخرى: "كأنهن لحزنهن عليه وتركهن الأكل، حُرم عليهن المرعى، وأصل ذلك في البهائم"[٣]؛ وقولها: "وما يَحِلُّ لهنَّ عُودُ" أي لا

١ نَوْحًا: قائمات باكيات. ما يحل لهن عود: لا يذقن طعامًا.

٢ التبريزي، يحيي بن علي الخطيب (١٩٨٧)، الجزء الثالث، ص ١٢٠٠.

٣ الأنباري، أبو محمد القاسم بن محمد بن بشار (١٩٢٠)، ص ٥٥١.

يُذقنَ طعامًا "فكَنَىَ عن الطعام بالعود، وإن كان من علف البهائم، كما كَنَى عن النساء بالبقر"[1].

(٨)

توجهت هذه الدراسة إلى قصيدة الرثاء في المفضليات، فعرضت في بدايتها بطريقة موجزة للغاية لفن الرثاء في الأدب العربي القديم وأنواعه، ثم انتقلت من ذلك إلى التعريف بالمفضليات بوصفها أقدم منتخب شعري في الثقافة العربية، وعمدت بعد ذلك إلى قراءة نماذج مختارة من أشكال الرثاء، ففي رثاء الأقارب والأصدقاء قرأت قصيدتي متمم بن نويرة في رثاء أخيه، وفي رثاء الذات كانت قصيدة أفنون التغلبي، وفي رثاء النساء كانت قصيدة لامرأة مجهولة من بني حنيفة.

وإن كانت هذه الدراسة لم تتسع لقراءة النماذج جميعها المتصلة بالرثاء في المفضليات، فإن ذلك يتصل بطبيعتها التي تهدف إلي إبراز هذه القصيدة في المفضليات من ناحية، ولفت الانتباه إلى أهمية قصائد المفضليات بأنواعها المختلفة في الأدب العربي القديم من ناحية أخرى.

١ التبريزي، يحيي بن علي الخطيب (١٩٨٧)، الجزء الثالث، ص ١٢٠٢.

ببليوجرافيا

- **ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الجزري (٢٠٠٣).**
أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق وتعليق:على محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، قدم له وقرظه: محمد عبد المنعم البري وعبد الفتاح أبو سنة وجمعة طاهر النجار (بيروت: دار الكتب العلمية).
- **إسماعيل، عز الدين (١٩٩٤).**
المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي (القاهرة: مكتبة غريب).
- **الأصفهاني، أبو الفرج على بن الحسين (٢٠٠٨).**
الأغاني، تحقيق: إحسان عباس وإبراهيم السعافين وبكر عباس، المجلد الخامس عشر، الطبعة الثالثة (بيروت: دار صادر).
- **الأنباري، أبو محمد القاسم بن محمد بن بشار (١٩٢٠).**
شرح ديوان المفضليات، عني بطبعه ومقابلة نسخه وتذيله بحواشي وروايات لعدة لغويين وعلماء: كارلوس يعقوب لايل (بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، علي نفقة كلية أُكْسفُرْد).
- **البغدادي، عبد القادر بن عمر (١٩٨٣).**
خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، الجزء الحادي عشر، الطبعة الأولى (القاهرة: مكتبة الخانجي).
- **التبريزي، يحيى بن علي الخطيب (١٩٨٧).**
شرح اختيارات المفضل، تحقيق: فخر الدين قباوة، الجزء الثالث، الطبعة الثانية (بيروت: دار الكتب العلمية).
- **التِّرْمِذِيّ، الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى (١٩٩٦).**
الجامع الكبير، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: بشار عواد معروف، المجلد السادس، الطبعة الأولى (بيروت: دار الغرب الإسلامي).

- **ابن جعفر، أبو الفرج قدامة (بدون تاريخ).**
نقد الشعر، تحقيق وتعليق: محمد عبد المنعم خفاجي (لبنان، بيروت: دار الكتب العلمية).
- **الجمحي، محمد بن سلام (١٩٨٠).**
طبقات فحول الشعراء، قرأه وشرحه: محمود محمد شاكر، السفر الأول (جدة: دار المدني).
- **ابن حبيب، أبو جعفر محمد (١٩٩١).**
كتاب ألقاب الشعراء ومن يعرف منهم بأمه، ضمن كتاب: نوادر المخطوطات، تحقيق: عبد السلام هارون، الجزء الثاني، الطبعة الأولى (لبنان، بيروت: دار الجيل).
- **خليف، مي يوسف (١٩٨٩).**
القصيدة الجاهلية في المفضليات، دراسة موضوعية وفنية (القاهرة: مكتبة غريب).
- **الذبياني، النابغة (١٩٨٥).**
ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية (القاهرة: دار المعارف).
- **ابن ربيعة، مهلهل (١٩٩٣).**
ديوان مهلهل بن ربيعة، شرح وتقديم: طلال حرب (لبنان، بيروت: الدار العالمية).
- **ابن رشيق، أبو علي الحسن القيرواني الأزدي (١٩٨١).**
العمدة في محاسن الشعر آدابه ونقده، حققه وعلق حواشيه وفصله: محمد محيي الدين عبد الحميد، الجزء الثاني، الطبعة الخامسة (لبنان، بيروت: دار الجيل).
- **الزركلي، خير الدين (٢٠٠٢).**
الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، الجزء الخامس، الطبعة الخامسة عشرة (لبنان،بيروت: دار العلم للملايين).

- **ابن زكريا، أبو الحسين أحمد بن فارس (١٩٧٩).**
معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، الجزء الثاني (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع).
- **السكري، أبو سعيد الحسن بن الحسين (١٩٦٥).**
شرح أشعار الهذليين، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، مراجعة: محمود محمد شاكر (القاهرة: دار العروبة).
- **الشريف الرضي، أبو الحسن محمد بن حسين بن موسى (١٩٦١).**
ديوان الشريف الرضي، المجلد الثاني (لبنان، بيروت: دار صادر للطباعة والنشر ودار بيروت للطباعة والنشر).
- **شيخو، الأب لويس (١٩٩١).**
شعراء النصرانية قبل الإسلام، الطبعة الرابعة (بيروت: منشورات دار المشرق).
- **الصفار، ابتسام مرهون (١٩٦٨).**
مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي (بغداد: مطبعة الإرشاد).
- **ابن الصِّمَّة، دُرَيْد (١٩٨٥).**
ديوان دُرَيْد بن الصِّمَّة، تحقيق: عمر عبد الرسول (القاهرة: دار المعارف).
- **الضبي، أبو العباس المفضل بن محمد (١٩٧٩).**
المفضليات، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون، الطبعة السادسة (القاهرة: دار المعارف).
- **ضيف، شوقي (١٩٨٧).**
الرثاء، الطبعة الرابعة (القاهرة: دار المعارف).
- **الطيب، عبد الله (١٩٩٢).**
المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، الجزء الرابع: في الأغراض والأساليب، القسم الثاني (السودان، الخرطوم: مطبعة جامعة الخرطوم، دار جامعة الخرطوم للنشر).

- **ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (١٩٨٢).**
الشعر والشعراء، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، الجزء الأول (القاهرة: دار المعارف).
- **المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسي (٢٠٠٥).**
معجم الشعراء، تحقيق: فاروق اسليم، الطبعة الأولى (بيروت: دار صادر).
- **ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (١٩٥٥).**
لسان العرب (لبنان، بيروت: دار صادر).
- **ميدان، أيمن محمد (١٩٩٥).**
شعر تغلب في الجاهلية، جمع وتحقيق: أيمن محمد ميدان، مراجعة: صلاح الدين الهادي (القاهرة: معهد المخطوطات العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم).
- **ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق (٢٠٠٩).**
الفهرست، قابله على أصوله وعلق عليه وقدم له: أيمن فؤاد سيد، المجلد الأول (لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي).
- **هارون، عبد السلام (١٩٦٧).**
مقدمة شرح ديوان الحماسة لأبي على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي، نشره: أحمد أمين وعبد السلام هارون، القسم الأول، الطبعة الثانية (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر).